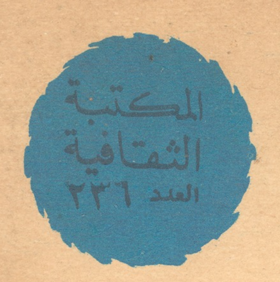
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي



الوحى الإلهى

تأليف : الحسينى عبد المجيد هاشم

المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)

٢٣٦

الوحى الإلهى

تأليف

الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصــــلاة وســـلاما على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين . اصـــــطفاه الله فأنزل عليه الوحى الالهى ـ القرآن الكريم ـ نورا مبينا «وأنزلنا اليكم نورا مبينا(١)» « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (٢) »

وأشرقت الأرض بنور ربها منذ أن نزل الوحى الأمين على النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء مستفتحا الرســـالة الخالدة والوحى الالهى . باسم الله رب كل شىء « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم » .

وتتابع الوحى مرشدا ومربيا . ومؤلفا بين القلوب. وهاديا الى الطريق المستقيم فتعلقت به القلوب ، ورتلته الألسن ، وحفظته الصدور ، وسطرته أقلام الوحى كمـا

(١) سورة النساء الآية : ١٧٤

(٢) سورة المائدة : ١٥

أنزل ، وعاش المسلمون بالقرآن وللقرآن .. يتعبدون بتلاوته . ويستجيبون لأمره .

امرهم بتوحيد الله فوحدوه .. وأمرهم بطاعة نبيه واتباع سنته فأطاعوه واتبعوا سنته .

وقامت صلتهم مع الله ومع خلقه على أساس ما فى القرآن من بيان واحكام وعلموا منه حقائق الدنيا والآخرة. وقوانين الخير والفضيلة .

وقال لهم نبيهم : ان أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وكان السلف الصالح يرتلون الوحى ويعملون به .

يقول أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن . كعثمان بن عفان . وعبد الله بن مسعود أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشرآيات لم يتجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل .

قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا .

وعن عبد الله بن مسعود قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان هذا القرآن مأدبة الله . فتعلموا من مأدبته ما استطعتم .

ان هذا القرآن حبل الله المتين وهو النور المبين . والشفاء النافع . عصمة من تمسك به . ونجاة من اتبعه. لايعوج فيقوم . ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه .

ولا يخلق على كثرة الرد . فاتلوه فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات » .

والقرآن هو المعجزة الخالدة . والدليل القاطع على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم . فى كل ما جاء به . وقد تحدى الانس والجن « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) »

انه معجز بأسلوبه البليغ . وبهديه الفريد . وبعلمه الثابت . انه المعجزة الكبرى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٢) »

وكما كان القرآن الكريم فريدا فى أسلوبه ومعانيه وعلمه . انفرد بالطريقة التى جاء بها وهو الوحى الالهى .

ويطلق على القرآن أنه وحى بمعنى أن الله أوحى به . ويطلق على الطريقة التى نزل بها أنها وحى ويطلق على الملك الذى نزل به . وهو جبريل الأمين : الوحى .

وفى كتابى هـذا يدور البحث حـول معنى الوحى وكيفية نزول الوحى من الله قرآنا وسنة على النبى صلى الله عليه وسلم . وتحليل ظاهرة الوحى . وحاولت أن أرد على نظريات استشراقية نثرت سمومها فى الجو الاسلامى

---

(١) سورة الاسراء الآية : ٨٨

(٢) سورة فصلت الآية : ٤٢

محاولة أن تنقص من شأن الوحي الالهى · وأنى لهم ذلك وقد تكفل الله بحفظه فقال :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (١) »

والله ولى التوفيق ·

الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم

---

(١) سورة الحجر : ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم • صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى لله تصير الأمور)

صدق الله العظيم

الوحي والقرآن والكتاب

يهمنا ونحن بصدد الحديث عن الوحى القرآنى أن نحدد معنى الوحى بالقدر الذى يؤمن فيه عدم التداخل بين المعانى ·

فليس أخطر على مفهوم فكرة من الأفكار الحساسة من ان ينمـاع المعنى فى آخـر حتى ولو كان ذلك بين المعنى اللغوى والمعنى الاصـطلاحى ـ فيبهـم الأمر أمام طالب الحقيقة · واذا لم يكن المعنى محددا بادىء الأمر فانه قد يلجأ الباحث فى النهاية لكى يعرض الفكرة واضحة فى اطار معين الى تعليلات فلسفية يغرق فيها المعنى ثم لا نأتى فى النهاية بالغرض المطلوب ·

وكل ما نأمل فيه أن يوفقنا الله الى نهج الطريق القويم الواضح المعالم الذى يوصل الى الهدف .

ونبدأ بالبيان للمعنى العام للوحى ثم نصعد فى سلم الارتقاء الى غرضنا الاسمى بيان الوحى القرآنى ·

ومن المعلوم أن المعنى العام باقطاره الفسيحة انمـا يوجد فى المعنى اللغوى · والوحى يطلق فى اللغة على مطلق الاعلام غير مقيد ذلك الاعلام بأحد معين يلقيه ولابمستقبل معين يلقى عليه · كما أنه غير مقيد ذلك الاعلام بطريق معين

من طرق المعرفة . كالرمز أو التعريض أو الالهام أو الكتابة أو الكتاب أو الكلام(١) .

ولا يلزم أن يكون ذلك على وجه السرعة أو الخفاء وان قيل ان الأصل فيه السرعة والخفاء ـ كما أنه غير مقيد بلون معين من المعرفة من الخير أو الشر بل يشمل كل ذلك وما من شأنه أن يكون طريقا للاعلام حتى يكون المعنى اللغوى جامعا لكل ما تقدم .

ـ فيكون الوحى من الله سبحانه وتعالى الى غير العاقل بمعنى الالهام الغريزى ، قال الله تعالى « واوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون »

ـ ويكون الوحى من الله سبحانه وتعالى الى البشر على سبيل الالهام الفطرى الواضح من غير نبوة كقوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

ـ ويكون من الله سبحانه الى الملائكة بطريقة تتناسب مع ملائكيتهم كقوله سبحانه : « اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » .

ـ ويكون الوحى من الشياطين الى أوليائهم بعيدين

(١) انظر ابن حجر في فتح البارى جـ ١ ص ٩

عن الخير قال تعالى « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم » .

ويوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا عن الأنس والجن كما قال تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » .

- ويكون الوحى باشارة وحية « أى سريعة » وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » أى أشار.

ويكون بالايماء بالجوارح ومنه قول الشاعر :

نظرت اليها نظرة فتحيرت
دقائق فكرى فى بديع صفاتها
فأوحى اليها الطرف أنى أحبها
فأثر ذاك الوحى فى وجناتها

والمعنى اللغوى للوحى يتسع لكل هذه المعانى ، وهذا التعميم سمة المعنى اللغوى ويتفق مع التعريف فى القاموس ولسان العرب كما قالوا وما جاء فى الفتح لابن حجر - : (الوحى الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته على غيرك)) .

واذا كان بعض الكتاب قد قيد الاعلام بأنه الخفى السريع فلأن الأصل فيه ذلك ، ولكنه أصبح يطلق على

مطلق الاعلام ، والا فالكتابة والكتاب مثلا لا يتحقق فيها ذلك. وأى تحديد لا يجعله يستوعب كل الصور المذكورة، فالأولى التعميم في المعنى اللغوى حتى يتسع لكل هـــذه المعاني وان اختلفت كيفياتها ومصادرها وأهدافها ، فــلا عليك أن تسمى كل ذلك وحيا لغويا ، ولكنه ليس بالوحى الشرعى أو الحقيقة الشرعية للوحى أو الوحى القرآنى . وهدفنا من هذا العرض ان نتجنب مسألة شائكة وهى الخلط بين المعنى اللغوى والحقيقة الشرعية للوحي . وفي ضوء ذلك تشرق لنا قسمات الوحى القرآني سافرة المحيا .

(الوحي الشرعي)

ـ والوحى فى حقيقته الشرعية « هو اعلام الله الى أنبيائه »

فلا يكون مصدره الا من الله العلى العظيم ، ولا يتلقاه الا نبى لرب العالمين . فهو متميز ارسالا واستقبالا وله صفته الخاصة ، وله صور بينها القرآن الكريم ، وحدد فى النهاية الصورة الجلية التى اختارها لوحى كتابه قال جل شـــأنه « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجـــاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم ، وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله

الذى له ما فى السماوات وما فى الارض ألا الى الله تصير الأمور » .

فقد أشارت الآية الاولى الى وحى الله للرسل أو اعلام الله للرسل أو قل كلام الله للرسل فى ثلاث صور من صور الوحى :

١ ـ الصورة الأولى :

وتكون بالقاء الله المعنى فى قلب نبيه يقظة أومناما، مع جعله يشعر شعورا كاملا واضحا بأن هذا المعنى من عند الله ، فليس بمطلق الالهام الغامض غير معروف المصدر ، بل اذا سميته الهاما ، فهو الهام واضح متميز عن غيره بأنه يقينى المعرفة معلوم مصدره لدى النبى عليه السلام بأنه من عند الله . ولذا دفعت هذه الرؤيا المنامية سيدنا ابراهيم عليه السلام الى تنفيذ المعنى الملقى اليه وان كان شاقا عادة ، فسارع لذبح ابنه وفلذة كبده وصارحه بذلك قائلا : « يا بنى انى أرى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى أن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » .

ويشعر سيدنا اسماعيل بقداسة الوحى وبأنه آمر فيقول : « يا أبت افعل ما تؤمر » .

وكان الاستسلام لله بأدق معنى ـ ولما أسلما وحصلت

الطاعة لأمر الوحى وصدقت الرؤيا وكانا من المحسنين كان جزاء الاحسان الاحسان فجاء الفداء .

ومثل ذلك رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم بأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام أمنين فقال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » .

٢ ـ الصورة الثانية للوحى الشرعى :

أن يكلم الله نبيه من وراء حجاب مثل ماحصل لموسى عليه السلام عندما كان مع أهله فى ليلة باردة وقال لأهله امكثوا وانتظروا انى آنست نارا لعلى آتيكم من هذه النار بقبس أو لعلى أجد على النار هاديا يهدينى السبيل « أى الطريق » فلما أتاها وهو أمام الشجرة فاذا به يجد الهدى الحق ونودى « ياموسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى» . «وكلم الله موسى تكليما » وهذا نوع من الوحى الشرعى .

٣ ـ الصورة الثالثة :

أن يرسل الله ملكا رسولا وهو أمين سر الوحى جبريل

عليه السلام انه على حد تعبير ورقة بن نوفل «الناموس الذى كان ينزل على موسى » وهو بتعبير القرآن « الروح الأمين » فينزل ولكن بأمر الله ، ويوحى ولكن بأذن الله وما يشاؤه الله . وفى كل هذه الصور لا تحسبن أن وحى الله يشبه كلام الحوادث ولا تحسبن الخالق كالمخلوق ـ انه ليس كمثله شيء هو العلى عن صفات المخلوقات ، الحكيم بما يصلحها فهو أعلم حيث يجعل رسالته وأعلم كيف تكون رسالته · صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، هذه الصور الثلاث هى صور الوحى الشرعى ـ وحى الله الى أنبيائه عامة بما فيهم خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

الوحى القرآنى

ونمضى مع السياق القرآنى ـ وهل هناك أهدى وأقوم قيلا منه ـ لنهتدى بأى طرق الوحى جاء · فيهدينا الى خاتمة الصور وهى أن يرسل الله رسولا فيوحى باذنه ما يشاء وهى الطريق الوحيد الى وحى القرآن بمعنى أنه ليس للقرآن طريق غيره ·

« وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين . » وليس للروح الأمين دخل فى الموحى به فليس له غير التبليغ المأمور به · انه من أمرنا وليس لك أيضا يا محمد دخل فى الموحى به بل ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان الذى

دعا اليه الكتاب قبـــل الوحى « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك » . « ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك (يا محمد) لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور » هذا طريق القرآن كما حددته الآيات . انه كما يقول العلماء الوحى الجلى أو الوحى الصريح أو ان شئت فقل الوحى المباشر يلتقى به ملك الوحى بالنبى عليه الصلاة والسلام لقاء مباشرا صريحا جليا فيبلغه ما تلقاه من الله مباشرة .

ان ظاهرة الوحى القرآنى ظاهرة السمات لا لبس فيها ولا غموض ولا اختلاط فيها بعوامل النفس أو الالهام أو الرؤيا . انه الطريق الذى اختاره الله لـكلامه فليس بكلام جبريل ولا النبى صلى الله عليه وسلم وحق لأن يطلق على جبريل بأنه الوحى وعلى الموحى به وهو القرآن بانه الوحى .

ونلاحظ فى الآية الثانية التى حددت وحى القرآن . ان الله يطلق على القرآن (الكتاب) وذلك بقوله سبحانه « ما كنت تدرى ما الكتاب » ونرى ذلك كثيرا في نسق القرآن ، فمع ان الدنيا مملوءة كتبا ومع ان الكتب المقدسة السابقة المنزلة على الأنبياء بالصورة التى حددها القرآن هىّ كتب من عند الله أيضـــا ولكن بعد أن تنزل الكتاب المهيمن على الكتب المصـــدق لما بين يديه من التوراة

والانجيل والزبور والكتب السابقة عامة فاذا اطلق الكتاب فهو القرآن خاتم الكتب الالهية الداعى الى التصديق بالكتب السابقة المنزلة الناسخ لشرائعها الذى تكفل الله بحفظه انه الكتاب «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» انه احسن الحديث انه ذكر الله « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

والكتب المقدسة السابقة ـ كلام الله . ومع ذلك فبعد نزول القرآن اذا أطلق كلام الله فهو القرآن «وان أحد من المشتركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » .

وعلينا أن نؤمن بالرسل السابقين ـ كأسمى ما يكون الايمان ـ وبكتبهم ، وتبلغ السماحة الاسلامية أو قل سمو حقيقة الاسلام وعالمية كتاب الاسلام انه لا يفرق بين أحد من رسله ولا ايمان لمن خالف ذلك «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

ومع ذلك فاذا أطلق الرسول فهو خاتم الرسل المنزل عليه خاتم الكتب « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك » .

ولعل بهذا العرض يكون قد اتضح المعنى اللغوى

للوحي ، وفى ضوء الآيات القرآنية قد تحددت سـمات الوحي متميزا عن المعنى اللغوى ، ثم رأيناه الطريق الذى اختص به القرآن من طرق الوحي الشرعى . وفى ضوء ذلك يمكننا تحديد الوحي القرآني «بانه اعلام الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن طريق نزول ملك الوحي جبريل عليه السلام بكلامه تعالى المعجز المتعبد بتـلاوته المنقول الينا بالتواتر وهو المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة الى سورة الناس . وهـذه ظاهرة الوحي القرآني اجلى طرق الوحي الشرعى سافرة وضاءة . فاذا سموا حديث النفس وحيا ، أو الرأى المنبثق منهـا وحيا أو مطلق الالهام ولو غامضا وحيا ، أو قالوا هذا وحى الأقلام أو وحى الخاطر أو وحى الشيطان . نقول لهؤلاء لا بأس عليكم ولكنه لغوى وليس بوحى فى عرف الشرع ودائرته الواضحة المحددة القسمات فاحذروا أن تخلطوا بين المعنيين .

تلقى الوحى من الملك

ان أصدق تصوير لحالة نزول ملك الوحى بالوحى على النبى صلى الله عليه وسلم قد بينه صلوات الله وسلامه عليه ـ ولا ينبئك مثل خبير ـ مبينة فى اجابة على سؤال وجهه اليه الحارث بن هشام رضى الله عنه ـ روى الامام البخارى رضى الله عنه في صحيحه (١) بالسند المتصل عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال ،

وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى ، فأعى مايقول ـ قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وان جبينه ليتفصد عرقا .

فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم حالتين لنزول الوحى :

الحالة الأولى يأتيه ملك الوحى فى صورة ملائكية ، وفى

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٢

هذه الحالة تعترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شـدة منشؤها تقريب الطبيعة البشرية الى ملاءمة الطبيعة الملائكية والجـو الملائكى ، انهـا بتعبير ابن خلدون « انسـلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملائكية الروحانية » ·

وفى هـذه الحالة يحـدث عنـد قدوم الملك صـوت صلصلة مثل صلصلة الجرس تنبيها وايذانا بقدوم الوحى· والحـكمة فى ذلك « أن يفرغ النبى الكريم سـمعه للوحى فلا يبقى فيـه مكانا لغـيره » ولا يصـح أن يفسر بأن الصلصلة هى من تلقى القرآن بحيث يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه ويعيه بعد ذلك · كما التبس على البعض ·

وعلق بهذا على ما روى فى مسند أحمد عن عبد الله: سألت النبى صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحى ؟ فقال أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى الى الا ظننت ان نفسى تقبض ــ فقال المعلق « المراد أنه صوت متـدارك يسـمعه ولا يتبينه أول ما يسـمعه حتى يفهمه بعد (١) » ·

فليس ذلك بحق وانما المراد أن النبى صلى الله عليه وسلم عند قدوم الوحى يسمع صلاصل التنبيه ثم يسكت وتعتريه حالة الشدة وكأنه يقبض من عالم البشرية الى عالم

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٤٤

الملائكية حيث يلقنه ملك الوحي جبريل الآيات التى جاء بها من الملك القدوس المهيمن ويتلقى فى رحاب السمو ـ كلام الله ـ بلسان عربى مبين · ونجد فى تعبير الرسول الدقيق « فينفصم عني وقد وعيت ـ بصيغة الماضى مايفيد أن الوعى حصل أثناء تلقيه ووجوده مع الملك وكان واعيا تماما مدركا حاضرا فى أتم حالة الحضور ـ مع ملك الوحى وكان يتابع جبريل فى كل حرف مرددا على لسانه الشريف ما سمعه من الوحى ، محركا اللسان به قبل انقضاء الوحى خوف الضياع ، حتى طمأنه الله بأنه ضمن له حفظه وجمعه له في صدره وبيانه قال تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » وقال : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » ·

واقرأ قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ·

فالنزول على قلبه ووعيه وحفظه فيه واضح وضوح النزول على سمعه وقوته فيه بلسان عربى مبين · ان النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحالة بقدر غيبته عما حوله من الجو البشرى كان حضوره بقلبه وسمعه وجميع حواسه الشريفة الواعية فى الجو الملائكى واعيا حافظا لما أوحى اليه . انه أفرغ سمعه وقلبه وكله لتلقى الوحى .

أما الأصوات فهى ليست الا للتنبيه لهذا الافراغ

والاستعداد، وان هذه الأصوات الصلصلية القوية كصلصلة الجرس فى سمع النبى صلى الله عليه وسلم المرهف المستعد هى التى تقل قوتها بالنسبة لاستعداد الحاضرين مع النبى عليه السلام فتكون فى سمعهم فى قوتها بما عبر عنه « بأنه يسمعها من حوله كأنها دوى النحل . وليست قرآنا ولا أمرا آخر غير الصلصلة التنبيهية الجرسية فى الحس المرهف للرسول ، ولكنه قوة الاستعداد وصفاء الفطرة واعداد الله وعلمه حيث يجعل رسالته . ورد أنه يسمع عنده كدوى النحل وقال عمر رضى الله عنه الصلصلة بالنسبة للنبى عليه السلام ودوى النحل بالنسبة للسامعين (١) .

هذه الحالة هى التى نزل بها القرآن ـ فى الجو الملائكى وسندلل على انها الحالة الوحيدة لنزول القرآن وان ماعداها فبالنسبة لوحى السنة .

الحالة الثانية كما نص الحديث أن يتمثل الملك ـ رجلا فيكلم النبى عليه السلام ويعى مايقول . يتمثل الملك على صورة رجل وهى مغايرة للصورة الأولى لانها انتقال الملك جبريل عليه السلام ملك الوحى من الروحانية والملائكية الى البشرية الجسمانية فيكون على صورة دحية الكلبى أو على صورة أعرابى ويراه الحاضرون ويسمعونه وهو يحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يعرفون حقيقته ، فيكلم النبى فيعى ما يقول ، وليس فى هذه الحالة شدة فلا تغير

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ١ ص ٢٧

للنبى صلى الله عليه وسلم ولا عرق يتصبب من جبينه الشريف ولا يثقل جسمه ولا يشعر كأنه يقبض فهو أهونه عليه وجاء فى صحيح أبى(١) عوانه : قال عليه السلام وهو أهونه على . انه وحى السنة ، أما وحى التنزيل فقد ورد فى الحديث الصحيح بالسند المتصل فى البخارى :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) يعالج من التنزيل شدة .

ومثال تلك الحالة الثانية قد سطر فى صحيح(٣) البخارى جاء فيه :

« باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة وبيان النبى صلى الله عليه وسلم له ، ثم قال جاء جبريل يعلمكم دينكم فجعل ذلك كله دينا » .

حدثنا مسدد قال حدثنا اسماعيل بن ابراهيم أخبرنا أبو حيان التميمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال ما الايمان ؟ قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث .

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٤٥

(٢) صحيح البخارى جـ ص ٣٢ بدء الوحى شرح فتح البارى

(٣) صحيح البخارى ص ٧

قال : ما الاسلام ؟ قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ٠

قال : ما الاحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ٠ قال : متى الساعة ؟ قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها : اذا ولدت الأمة ربها ٠ واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن الا الله ٠ ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم (ان الله عنده علم الساعة ٠٠) الآية ٠ ثم ادبر فقال : ردوه فلم يروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » ٠

وفى كلا الحالين الملائكية والحالة البشرية ـ يعى النبى صلى الله عليه وسلم وعيا واضحا لما يلقيه ملك الوحى ٠

في الجو الملائكي نزل القرآن الكريم

وفي الجو الملائكي بالطريقة الأولى للوحي نزل الوحي الجلي – القرآن الكريم حيث يكون التنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم .. ليستعد لما يلقى اليه وينتزع انتزاعا عن كل ما حوله فيتفرغ قلبه وسمعه وكله للقرآن انها ظاهرة الوحي القرآني وتبلغ الروحانية الشديدة بالنبي الى حالة توجد ثقلا ملموسا في جسمه . وعرقا متقاطرا مثل الجمان من جبينه ، أمر خارج عن الارادة البشرية وليس من تأثير جو قائظ حار بل يكون ذلك حتى في اليوم الشديد البرد، أكدت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها ، قالت : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وان جبينه ليتفصد عرقا ... ويبلغ ثقل جسمه كما نقل ابن القيم – حتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ان كان راكبها .. ولقد جاء مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضبها . واني أعتقد بأن هذا الطريق الملائكي هو الطريق الوحيد بالنسبة لنزول القرآن وأن ما عداه فانما هو بالنسبة لوحي السنة وان خالف ذلك أو لم ينبه عليه بعض الكتاب .

وان كنت أعلن أولا بأنه سواء أصح الرأي الذي

أخذته ووفقت الى تجليته من أن القرآن نزل فى الجو الملائكى أو كما بدا للبعض بأنه نزل بالطريقين فلن يغير ذلك شيئا بالنسبة للثقة في القرآن • ولكنه الشغف العلمى بتحقيق كل ما يمس رحاب الكتاب الخالد المعجز ـ والميل الى تصحيح المفاهيم حوله بقدر الطاقة المحدودة والله الموفق•

ويؤيد أن القرآن لم ينزل الا فى الجو الملائكى :

روى الامام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر سألت النبى صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحى ؟ فقال أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى الى الا ظننت أن نفسى تقبض(١) .

فيفيد بأن السؤال عن الوحى الجلى ـ وهو القرآن ، لا مطلق الوحى ويحدد ذلك الجواب فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها حالة الشدة والتنبيه بالصلصلة. ثم أكد أنها الحالة المستمرة التى لا يأتى الوحى الجلى وهو القرآن الا بها ، بقوله فما من مرة يوحى الى الا ظننت أن نفسى تقبض ـ ومعلوم بأن السنة ليست كذلك بل تكون بطريق تمثل الملك رجلا كما روينا من حديث البخارى وتكون بالالهام أيضا ـ فماذا يعنى بكل مرة غير وحى القرآن ؟ ـ وكان النبى عليه السلام حينما يسأل عن مطلق الوحى يفصل ألوانا من حالاته تشمل الكتاب ـ وهى حالة

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٤٤ باب كيفيات الوحى

الشدة - وألوانا تشمل السنة • وحينما يسأل عن الوحى ويعلم ان السائل يريد الوحى الجلى - القرآن - يحدد طريقته الوحيدة التى يكون بها الوحى كل مرة - كما قرر الرسول بقوله فما من مرة •

وتطلق أيضا السيدة عائشة الكلام عن الوحى فتجيب بحالة الملائكية :

أخرج ابن سعد عن عائشة قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يغط رأسه ويربد وجهه أى يتغير لونه ويجد بردا فى ثناياه ويعرق حتى ينحدر منه مثل الجمان(١) •

ثم لم نجد فى كتب السنة النبوية حديثا صريحا ينص على أن جبريل عليه السلام نزل يوما على صورته البشرية ولقن النبى صلى الله عليه وسلم قرآنا كما ورد ذلك بالنسبة لنزوله بالسنة ورآه الصحابة وروى ذلك فى الأحاديث الصحاح من صحيح البخارى ومسلم وقد تقدم ذكر الحديث الوارد فى صحيح البخارى •

فلو كان جبريل عليه السلام قد ظهر بصورته البشرية وأقرأه قرآنا - وشوهد - لنقل ذلك ووصل الينا فى الأحاديث الصحيحة كما روى فى نزول السنة ، وهو أمر جدير بالتسجيل من نزول السنة •

---

(١) الاتقان للسيوطى

ثم لو نزل القرآن وجبريل على صورة رجل لما كان هناك شدة من معالجة التنزيل ، ولكن الحديث الصحيح الذى رواه البخارى يثبت أنه يعالج من التنزيل شدة :

روى البخارى فى صحيحه حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا أبو عوانة قال حدثنا موسى بن أبى عائشة قال حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله :

لا تحرك به لسانك لتعجل به ـ قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة . وكان مما يحرك شفتيه ، الحديث . فأى شدة ومعالجة اذا لم يكن جبريل بحالته الملائكية والرسول فى الجو الملائكى ؟

ومن القرآن أيضا ـ قوله تعالى : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . مع أنه لا ثقل فى تلاوته ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ـ فيرجح أن الثقل فى حالة الوحى .

وكما ذكر العلماء العلة الوجيهة فى تعليل حالة شدة الوحى الملائكى « والحكمة فى تقدم الصلصلة أن يفرغ سمعه للوحى فلا يبقى فيه مكانا لغيره وفى الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحى عليه » واذا كان الأمر كذلك فلم تتخلف حالة الافراغ لوحى القرآن فى حالة من الحالات؟ انها مطلوبة دائما ولا تتخلف ، حتى لا يبقى فيه مكانا لغيره .

ثم انه من المعلوم أن القرآن هو المعجزة التى تحدى

الرسول عليه السلام بها العرب وغيرهم فعجزوا عن الاتيان ولو بسورة من مثله ٠ ولما لم يجد الكفار سبيلا الى مجاراته دفعهم العجز والحمق الى التعلل والتشكيك بأساليب صبيانية غير مقبولة ـ شأن المكابر المعاند ٠ فبين الله أنهم معاندون لن يؤمنوا بالكتاب الكريم حتى لو أنزله الله ملموسا فى أيديهم لكذبوا حواسهم ، وقالوا هذا سحر مبين ـ قال تعالى : « ولو نزلنا عليهم كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » .

ثم حكى جدلهم فى الكتاب والرسول فكان مما قالوه: « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ٠ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » ٠

والمعنى لو أنزلنا ملكا ظاهرا اليهم ماثلا أمامهم وأمرهم بشيء ثم كذبوه لنزل عليهم العذاب ولم يؤخروا طرفة عين ٠ وهذه سنة الله فى الكفار متى اقترحوا آية فأنزلت ثم لم يؤمنوا استأصلهم بعذابه ولا يجهلون ٠ وكيف ينزل الملك عليهم أو يكون الرسول ملكا وهم ليسو بملائكة : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ٠ ولكنهم ليسوا بملائكة ، يقول ابن عباس : لو أتاهم ملك ما أتاهم الا على صورة رجل لانهم لا يستطيعون النظر الى الملائكة من النور٠ فلو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا فألبس عليهم الأمر وقالوا

هذا رجل لا ملك لانهم لم يريدوا أن يؤمنوا - وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من الحق .

وفى ضوء ذلك المعنى لو أنزل الله عليهم ملكا بالقرآن المتحدى به الذى هو دليل النبوة للرسول ومعجزته الخالدة - لكان رد القرآن عليهم وقول الله بما يفيد أنه أنزل على الرسول بالقرآن أصل الرسالة ملكا فى صورة رجل ورأيتموه أو رآه الناس وهو ينزل بالآيات ومع ذلك لم تؤمنوا بها .

فالكفار يتلمسون أوهى الأسباب فلو شاع وعرف أن الذى يأتى بما أعجزهم بالذات هو ملك على صورة رجل يعلمه القرآن للبسوا على أنفسهم وقالوا انما يعلمه بشر جاء اليه من مكان ما وقد رأيناه يعلمه القرآن .. ولو كان ذلك كذلك لحكى ذلك فى القرآن والحديث - ولو كان قصدهم ذلك لما كان الجواب عليهم ما ذكر من أن لسان الذين يلحدون اليه أعجمى ، بل كان المقتضى أن يكون الجواب بما يفيد أنه ملك فى صورة رجل .

ولعل من حكمة اختصاص القرآن بطريق الوحى فى الجو الملائكى قطع مثل هذه الافتراءات فضلا عما ذكر العلماء من حكمة لا تتخلف فى الآيات كلها وهى افراغ سمعه وقلبه للوحى فلا يبقى فيه مكانا لغيره وتحقيقا لهذه الحكمة كان المناسب لكلمات الله المعجزة بنظمها الالهى الا تلقى الا فى جو الصفاء الملائكى والنبى عليه السلام منصرف عما حوله

مستعد لما يلقى اليه مما نزله روح القدس من ربه على قلبه وسمعه بلسان عربى مبين ٠

بخلاف السنة فليست محل اعجاز بالنظم فليس بلازم أن تكون بطريق الوحى الملائكى فى الجو الملائكى فقط ٠ ولعل فيما تقدم من أدلة من السنة والقرآن مايوضح أن الوحى القرآنى ليس له الا طريق الجو الملائكى ـ ولم يكن بغير هذا الطريق ومن هذا الطريق وتلك المظاهر القرآنية يتخذ أستاذنا الكبير الدكتور دراز ـ دليلا على تعيين مصدر القرآن وأنه من عند الله ـ واليك تصويره الرائع لظاهرة الوحى القرآنى ٠

ظاهرة الوحي القرآني

« ان (١) دراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ـ من الأدلة على ان القرآن من عند الله تعالى.

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر اليه . فكانوا يرونه قد احمر وجهه فجأة وأخذته البرحاء حتى يتفصد جبينه عرقا، وثقل جسمه حتى يكاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه وحتى لو كان راكبا لبركت به راحلته ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتا مختلطة تشبه دوى النحل .. ثم لا يلبث أن تسرى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآنا جديدا وذكرا محدثا .

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فها هنا أقرب مظانه ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم ، ولينشد طلاب الحق ضالتهم ، وأين تلتمس الأسباب الصحيحة لأثر ما ان لم تلتمس حيث يظهر لك الأثر ، وحيث يدور وجوده وعدمه ؟

(١) النبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز ص ٧١

فلننظر الآن فى هـذه الظـاهرة : هل كانت شيئا متكلفا مصـنوعا وطريقة تحضـيرية يستجمع بها الفكر والروية ؟ أم كانت أمرا لا دخل فيه للاختيار ؟ واذا كانت أمرا غير اختيارى فهل كان لها فى داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباعثة النوم ، أو من الأسباب الطبيعيـة الشاذة كاختلال القوى العصبية ؟ أم كانت انفعالا بسبب خارجى منفصل عن قوى النفس ؟

وان نظرة واحـدة نلقيها على عناصر هـذه الظاهرة لتهدينا الى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفا ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التى كانت تسمع عنـد الوجه النبوى الشريف . وأيضا لو كانت صناعة وتكلفا لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوما أن يأتى بقرآن جديد الا جاء به من هذا الطريق الذى اعتاده فى تحضيره . مع أنه كثيرا ما التمسـه فى أشـد أوقات الحاجة اليه وكان لا يظفر به الا حين يشاء الله .

فهى اذا حال غير اختيارية .

ثم اننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعا بينها وبين عارض السبات الطبيعى الذى يعترى المرء فى وقت حاجته الى النوم ، فانها كانت تعروه قائما أو قاعدا، وسائرا أو راكبا ، وبكرة أو عشيا ، وفى أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه ، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة وتنقضى فى لحظات يسـيرة ، لا بالتـدريج الذى يعرض

للوسنان ، وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التى لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم · وبالاجمال كانت حالا تباين حال النــائم فى أوضاعها وأوقاتها وأشــكالها وجملة مظاهرها ·

فهى اذا عارض غير عادى ·

ثم نرى المبــاينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التى تصفر فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان ، وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ويخيم ظلام الجهل ، لانها كانت كما علمت مبعث نمو فى قوة البدن واشراق فى اللون ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وكانت الى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته ، وتتضاءل الأنوار عند طلعته ·

ها نحن أولاء قد كدنا نصل ·· فلتقف بنا وقفــة يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذى كان يبدو حينا ويختفى أحيانا من حيث لا يد لصاحبه فى ظهوره ولا فى اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثا من طبيعة هذه النفس المحمدية ؟ اذاً والله لكان خليقا أن ينبعث منها أبدا ولكان أحق بأن ينبعث منها فى حال اليقظة العادية والروية الفكرية أكثر مما ينبعث منها فى تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة التى قد تشبه السنة أو الاغماء ،

فلابد اذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نورانى يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن فيسمو بها عن أفق شعرها المحدود ويزودها بما شاء الله من العلوم ، ثم يرسلها الينا محملة بهذه الشحنة العلمية الى أن يلاقيها مرة أخرى . وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستفادا من ذاته ، وانما هو مستفاد من ضياء الشمس لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعا أبدا لاختلاف مواقعه منها قربا وبعدا، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوى انما كان شعاعا منعكسا من ضوء تلك الشمس التى يرون آثارها وان كانوا لا يرونها . نعم انهم لم يروها بأعينهم طالعة فى رابعة النهار ، ولم يسمعوا صوتها بآذانهم جرسا مفهوما وكلاما يفقهه الناس ، ولكنهم كانوا يرون قبسا منها فى الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم وان فى ذلك لهدى للمهتدين .

هى اذن قوة خارجية ، لانها لا تتصل بهذه النفس المحمدية الا حينا بعد حين .

وهى لا محالة قوة عالمة ، لانها توحى اليه علما .

وهى قوة أعلى من قوته لانها تحدث فى نفسه وفى بدنه تلك الآثار العظيمة (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى) سورة النجم .

وهى قوة خيرة معصومة ، لانها لا توحى الا الحق ولا تأمر الا بالرشد . فلا جرم أنها لاتكون قوة طائشة

شريرة كقوة الجن والشـياطين ، اذ ما للجن وعلم الغيب ولقد (تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ـ سورة سبأ) وما للشيطان وخبر السـماء وهى محفـوظة من كل شيطـان رجيم (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم ، وما يستطيعون ، انهم عن السمع لمعزولون ـ سورة الشعراء) • بل نقول : أليست الأرواح جنودا مجنـدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ؟ أو ليس المرء يعرف بقرينه ، وشبه الشيء ينجذب اليه ؟ فكيف تأتلف تلك الأرواح الخبيثة وذلك القلب النقى الطهور ؟ أم كيف تأتلف تلك القوى الطائشة وهذا العقل الكامل الرصين ؟ (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون)

فماذا عسى أن تكون هذه القوة ان لم تكن قوة ملك كريم ؟

ذلك هو مبلغ العلم فى وصف هـذه القوة الغيبية حسبما يهدى اليه البحث العقلى المستقيم • وليس بالمؤمن المقتصد حاجة الى أكثر من هذا القـدر فى ارضاء شهوته العلمية ، ولا فى تثبيت عقيدته الدينية • فمن شاء المزيد من وصفها وحليتهـا فليس سبيله الرجـوع الى دلالات العقول ، وانما سبيله الى الرجوع الى النقل الصحيح عن مهبط سرها ومظهر نورها صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فهو وحده الذى يستطيع أن يتحدث عن صاحب هذا السر

حديث شاهد العيان الذى رأى شخصه وسمع صوته ، بل حديث التلميذ الذى جلس الى أستاذه غير مرة ٠

فأما الذى يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وان لم يره ، لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلا من علم ظاهر للحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علما فانهم سيكذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون لك : لعله اضطراب فى أعصاب البصر خيل اليه أنه يرى شيئا من لا شيء ، وأنت فاستعذ بالله من عمى القلوب والعيون ، وقل : كلا (مازاغ البصر وماطغى ـ سورة النجم) ٠ أو يقولون : لعله اضطراب فى قوى الفكر صور له المعانى أشباحا ماثلة ، والأحلام حقائق مجسمة ، فابرأ الى الله من هذا الجنون ، وقل : كلا (ما كذب الفؤاد ما رأى) ٠

نعم لقد عجبوا أن يكون انسان يرى الملائكة عيانا ويكلمهم جهارا ٠ بل عجبوا أن يكون فى الدنيا خلق لا يرونه بأعينهم ، وصوت لا يسمعونه بآذانهم ٠ فقالوا كيف يرى محمد ما لا نرى ، ويسمع ما لا نسمع ٠

ولعمرى لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب ، فاننا نفهم أنه لو ساغ مثله فى عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التى تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية ٠

الوحى والعلم الحديث :

وان من أقرب هـذه الآيات الى متناول الجمهور آية الهاتف « التليفون » . فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان ، من حيث لا يرى الجالسون فى مجلس التخاطب شيئا ، ويسمعون الا أزيزا كدوى النحل الذى فى صفة الوحى ـ وفى آية اللاسلكى الذى يحدد جهـة الارسال والاستقبـال وينقل الكلام بنفس الصـوت والألفـاظ ، والتليفزيون الذى ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك لما يقرب فكرة الوحى للأذهان المؤمنة بالمادة ولم تعرف سر الروحانية التى هى أسمى ـ وما قدروا الله حق قدره ـ

فان كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذه تمثل لهم الوحى تمثيلا ، وتريهم من طريق التجـارب ـ التى لا يؤمنون الا بها ـ أن اتصال النفس الانسانية بقوة أعلى منها قد يحدث فيها ظاهرة من جنس هذه الظاهرة وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة فى العقل ولا فى الحس قبل ذلك ، فهاقد أراهم الله تلك الآية العجيبة فى « أعجـوبة التنويم المغنـــاطيسى » فقد أصـبح الرجل القوى الارادة يستطيع أن يتسلط بقوة ارادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوعا عميقا لا يشعر فيه بوخز الابر، وهنالك يكون رهين اشارته وتنمحى ارادته فى ارادته :

فلو شاء أن يمحو من نفسه رأيا أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة . بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه (١) ويلقنه اسما آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه الا ايمانا وتسليما ، ولأصبح اســمه الحقيقي نسيا منسيا ، ولبقى هذا الاسم المصــنوع منقوشا على قلبه ولسانه بعــد أن يستيقظ الى ما شاء الله . فاذا كان هــذا فعل الانسان بالانسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

فذلك مثل(٢) حامل الوحي ومتلقيه عليهما السلام : هذا بشر مطواع ذو روح صاف يقبل انطباع العلوم فيه ، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل اليه رسالته ويقرئها اياه فلا ينسى الا ما شاء الله .

بيد أن بعدا شاسعا بين هذا الوحي النبوى ووحى

---

(١) حوادث التنويم المغناطيسى وآثارها البدنية والنفسية أكثر من أن تحصى ولكننا أشرنا بهذا المثال الى واقعة كان شاهد العيان فيها فاضل من علماء الازهر « الاستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى » وهو الذى فطن منها الى هذه العبرة الدينية ونشرها بمجلة الهداية الاسلامية فى شهر ربيع الاول من هذا العام (١٣٥٢ هـ) .

(٢) تأمل هذا التقريب تجد فيه آية أخرى على بطلان دعوى « الوحى النفسى » التى يروجها الملحــدون ، اذ أنه من الاركان الاساسية التى اجمع عليها علماء التنويم انه انما يكون بين نفسين مختلفتى الطبائع احداهما أقوى ارادة من الاخرى فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهذه التجربة فى نفسه الا اذا فرضنا اجتماع النقيضين أو أن يكون الواحد اثنين .

الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غرورا ، وكثيرا ما يترك وحيهم فى نفس متلقيه أعراضا عقلية أو بدنية يصعب علاجها . فأين هذا من الوحى بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملكى فانه كما علمت لا يوحى الا الحق ، ولا يأمر الا بالخير ، وأما الرسول البشرى فانه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد كامل العقل قوى النفس والبدن (الله أعلم حيث يجعل رسالته ـ سورة الأنعام) (١)

---

(١) نقلا عن النبأ العظيم للدكتور دراز .

وحى القرآن
والأحاديث القدسية والنبوية

منذ أن أشرقت على الانسانية شمس الهـــداية الاسلامية ببعثة خاتم الأنبياء سـيدنا محمد صـــلى الله عليه وسلم ، تدفقت ينابيع الارشاد بيانا عربيا ممثلة فى ثلاثة أنواع من الوحى : القرآن ، والأحاديث القدسـية ، والأحاديث النبوية .

ولكل من القرآن والحديث عامة : القدسى والنبوى سمات مشرقة مميزة من حيث كيفية نزول الوحى به ، ومن حيث الخصائص الذاتية ، ومن حيث الاسناد ، كما أن لكل من الحديث القدسى والنبوى سمات مميزة له عن الآخـــر .

وفى الفرق بين نزول الوحى بالقرآن ونزوله بالسـنة عامة يقول الامام الجوينى امام الحــــرمين : كلام الله قسمان : قسم قال الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل اليه ان الله يقول لك افعل كذا وأمر بكذا ، ففهم جبريل ما قاله ربه ، ثم نزل على ذلك النبى ، وقال له ما قاله ربه ، ولم تكن العبارة تلك العبارة . كما يقول

الملك لمن يثق به قل لفلان يقول لك الملك اجتهد فى الخدمة واجمع جندك للقتال ، فان قال الرسول يقــول الملك لا تتهاون في خدمتى ولا تترك الجند تتفرق وحدثهــم وحثهم على القتال ، لا ينسب الى كذب ولا تقصير فى آداء الرســـالة .

وقسم آخر قال الله لجبريل عليه السلام اقرأ على النبى هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير ، كما يكتب الملك كتابا يسلمه الى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا » .

ويعلق(١) الامام السيوطى فى الاتقـــان على كلام الجوينى بقوله : قلت القرآن هو القسم الثانى بالنسبة لكلام الجوينى ، والقسم الأول هو السنة . كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما كان ينزل بالقرآن . ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداه بالمعنى، ولم تجز قراءة القرآن بالمعنى لأن جبريل أداه باللفظ ولم يبح ايحاءه بالمعنى .

والسر فى ذلك أن المقصود منه التعبد بلفظــه ، والاعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقامه . وأن تحت كل حرف منه معانى لا يحاط بهـــا كثرة . فلا يقدر أحد أن يأتى بدله بما يشتمل عليه . والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل اليهم على قسمين : قســم

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٤٤

يروونه بلفظ الموحى به ، وقسم يروونه بالمعنى ، ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف ، وقد رأيت عن السلف ما يعضد كلام الجوينى » .

ويزيدنا بيانا وتفصيلا العلامة الشهاب بن حجر الهيثمى فقد فصل القول فى الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية . فذكر أن الكلام المضاف اليه تعالى أول قسم منه وأشرفه (القرآن الكريم) لتميزه عن البقية باعجازه من أوجه كثيرة ، وكونه معجزة باقية على مر الدهر محفوظة من التغيير والتبديل ، وبحرمة مسه لمحدث ، وتلاوته لنحو جنب وروايته بالمعنى . وبتعيينه فى الصلاة وبتسميته قرآنا ، وبأن كل حرف منه بعشر حسنات . وبتسمية الجملة منه آية وسورة ، وغيره من بقية الكتب والأحاديث القدسية لا يثبت لها شىء من ذلك ، فيجوز مسه وتلاوته لمن ذكر وروايته بالمعنى ، ولا يجزىء فى الصلاة بل يبطلها ، ولا يعطى قارئه بكل حرف عشر حسنات ولا يسمى بعضه آية ولا سورة اتفاقا .

« وأما الأحاديث القدسية وهى ما نقل الينا آحادا عنه صلى الله عليه وسلم مع اسناده لها عن ربه ، فهى من كلامه تعالى ، فتضاف اليه وهو الأغلب ، ونسبتها اليه حينئذ نسبة انشاء لأنه المتكلم بها أولا ، وقد تضاف الى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه المخبر بها عن الله

بخلاف القرآن فانه لا يضاف الا اليه تعالى ، فيقال فيه قال الله تعالى . وفيها قال رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى » .

« أما بقية السنة وهى الأحاديث النبوية فاختلف فيها هل هى كلها بوحى أم لا ؟ وآية « وما ينطـق عن الهوى » تؤيد الأول ، أى انها بوحى ، لأنه سواء أكانت بوحى ابتداء أم باجتهاد النبى عليه الصلاة والسلام ثم اقره الله لأن الله لا يقره على خطأ فتصبح فى حكم الوحى على كل حال ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « ألا انى اوتيت الكتاب ومثله معه » من رواية أبى داود فى سننه وفى رواية الترمذى : « وان ما حرم رســـول الله كما حـرم الله » .

« ولا تنحصر تلك الأحاديث القدسية فى كيفية من كيفيات الوحى ، بل يجوز أن تنزل بأى كيفية من كيفياته كرؤيا النوم . والالقاء فى الروع . وعلى لسان الملك » .

« ولروايتها صيغتان : احداهما ان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمـا يروى عن ربه ، وهى عبارة السلف ومن ثم آثرها النووى . وثانيتهما أن يقول قال تعالى فيما رواه عنه صلى الله عليه وسلم والمعنى واحـــد » .

وفي كتاب الذهب الابريز يقول السيد عبد العزيز الدباغ :

« لو لم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم الا مايشبه الأحاديث القدسية لما آمن الناس » ثم يبين أن السيطرة على النفوس انما كانت بسلطان عظمة القرآن . يقول رضى الله عنه : « كل من استمع القرآن، وأجرى معانيه على قلبه علم علما ضروريا أنه كلام الرب سبحانه ، فان العظمة التى فيه والسيطرة التى عليه ليست الا عظمة الربوبية وسطوة الالوهية ، والعاقل الكيس اذا استمع لكلام السلطان الحادث ثم استمع لكلام رعيته وجد لكلام السلطان نفسا به يعرف . حتى لو فرضناه أعمى ، وجاء الى جماعة يتكلمون والسلطان مغمور فيهم ، وهم يتناوبون الكلام لميز كلام السلطان من غيره ، بحيث لا تدخله فى ذلك ريبة . هذا فى الحادث مع الحادث فكيف بالكلام القديم ، وقد عرف الصحابة رضى الله عنهم من القرآن ربهم ، وعرفوا صفته وما يستحقه من ربوبية ، وقام لهم سماع القرآن فى افادة العلم القطعى به عز وجل مقام العناية والمشاهدة حتى صار الحق سبحانه وتعالى عندهم بمنزلة الجليس منهم، ولا يخفى على أحد جليسه » .

ثم يفرق الدباغ بين الأحاديث القدسية والنبوية من حيث الهدف العام لكل منهما بصفة عامة فيقول : ترى الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى ، وتبيين عظمته أو اظهار رحمته أو بالتنبيه على سعة ملكه وكثرة عطائه .

ويمثل بما جاء لتبيين العظمة بالحديث القدسى :
« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحــد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا » الحديث رواية أبى ذر رواه مسلم .

ويمثل لاظهار الرحمة بالحديث القدسى المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصـــالحين ما لا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا ان شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهـــم من قرة أعين » رواه الشيخان .

ويمثل بالتنبيه على كثرة عطائه بالحديث القدسى المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يد الله ملأى سخاء لا يغيضها شىء الليل والنهار » رواه الشيخان .

أما الأحاديث التى ليست بقدسية فهدفها العام انها تتكلم على ما يصلح البلاد والعباد بذكر الحـــلال والحرام ، والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد .

ويقول الأستاذ القاسمى صاحب قواعد التحديث فى مصطلح الحديث « والأحاديث القدسية أكثر من مائة، وقد جمعها بعضهم فى جزء كبير » . لعله يقصد بذلك الكتاب المشهور . « الاتحافات الســـنية فى الأحاديث القدسية » .

ونرى أن كلام الدباغ المتقـــدم يمكن أن يقبل على اجماله بأن المقصد الأول أو الصفة السائدة لكل منهما تتسم بذلك المجال الذى بينه .

وقد فصل أستاذنا الكبير المرحوم الدكتور عبد الله دراز فى كتابه القيم « النبأ العظيم » القول فى الفرق بين القرآن والحديث القدسى . ووضح الأمر بالنسبة للفرق بين الحديث النبوى والقدسى وبينه بيانا شافيا .

فذكر أن العلماء فرقوا بين القرآن وما عـــداه . فقالوا : القرآن كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته . وأفاد وصـــــفه المتعبد بتلاوته ، أى المأمور بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة ، اخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك كالأحاديث القدسية وهى المسندة الى الله عز وجل ، أن قلنا انها منزلة من عند الله بلفظها .

الحديث النبوى توفيقى وتوقيفى :

ثم قسم الدكتور دراز الأحاديث النبوية بحسب ما حوته من المعانى الى قسمين : قسم توفيقى استنبطه النبى عليه السلام بفهمه من كلام الله . وبتأمله فى حقائق الكون ، وهذا القسم ليس من كلام الله مطلقا .

والقسم الثانى توقيفى تلقى الرسول مضمونه من الوحى فبينه للناس بكلامه ، وهذا القسم وان كان ما فيه من العلوم منسوبا الى معلمه وملهمه سبحانه وتعالى ،

ولكنه من حيث هو كلام حرى أن ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الكلام انما ينسب الى واضعه وقائله الذى ألفه على نحو خاص ، ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر ، وتلقاه الآخر عن الأول.

فالحديث النبوى اذا خارج بقسميه (التوفيقى والتوقيفى) عن كونه كلام الله . وكذا الحديث القدسى ان قلنا انه نزل بمعناه فقط . وهذا أظهر القولين فيه عندنا لأنه لو كان منزلا بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشارع ما للنظم القرآنى ، اذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله . فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه ، وعدم جواز روايته بالمعنى اجماعا ، وحرمة من المحدث لصحيفته ، ولا قائل بذلك كله . وأيضا فان القرآن لما كان مقصودا منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته احتيج لانزاله بلفظه ، والحديث القدسى لم ينزل للتحدى ولا للتعبد بل لمجرد العمل بما فيه ، وهذه الفائدة تحصل بانزال معناه ، فالقول بانزال لفظه قول شيء لا داعى للنظر اليه ، ولا دليل فى الشرع عليه ، اللهم الا ما قد يلوح من اسناد الحديث القدسى الى الله بصيغة « يقول الله تبارك وتعالى كذا » .

لكن يمكن على ضوء القرائن التى ذكرناها افساح المجال لتأويله ، بأن المقصود نسبة مضمونه لا نسبة

ألفاظه . وهذا تأويل شائع فى العربية ، فانك تقول حينما تنثر بيتا من الشعر « يقول الشاعر كذا » وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم وأسلوب غير أساوبهم ، ونسب ذلك اليهم .

فاذا زعمت أنه لو لم يكن فى الحديث القدسى شيء آخر مقدس وراء المعنى لصح أن تسمى بعض الحديث النبوى قدسيا أيضا لوجود ذلك المعنى فيه .

فجوابه أننا لما قطعنا فى الحديث القدسى بنزول معناه لورود النص الشرعى على نسبته الى الله بقوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى كذا سميناه قدسيا لذلك . بخلاف الأحاديث النبوية ، فانها لما لم يرد فيها مثل هذا النص جاز فى كل واحد منها أن يكون مضمونه معلما بالوحى ، وأن يكون مستنبطا بالاجتهاد والراى فسمى الكل نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به . ولو كانت لدينا علامة تميز لنا قسم الوحى لسميناه قدسيا كذلك .

قيمة الخلاف العملية بين الحديث القدسى والنبوى :

وفى دقة بين الدكتور أن هذا الامتياز لا يؤدى الى نتيجة عملية ، فسواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو من ذاك . اذ النبى صلى الله عليه وسلم

فى تبليغه صادق مأمون . وفى اجتهاده فطن موفق . وروح القدس يؤيده فلا يقره على خطأ ان أخطأ فى أمر من أمور الشريعة .

فكان مرد الأمر فى الحقيقة الى الوحى فى كلتا الحالتين . أما بالتعليم ابتداء واما بالاقرار أو النسخ انتهاء . ولذلك وجب ان نتلقى كل سنته بالقبول « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله رسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

والخلاصة

وفى ضوء هذه الآراء العلمية النيرة وجدنا الفرق جليا بين وحى القرآن الكريم ووحى السنة قدسية ونبوية ، والفرق بين الحديث القدسى والنبوى . فقد اختص القرآن بطريق واحد من طرق الوحى ، وهو الوحى الجلى باللفظ ، ولا كذلك الأحاديث قدسية أو نبوية ، فكما تكون عن طريق جبريل عليه السلام تكون بطرق الوحى الأخرى ، كالالقاء فى الروع والرؤيا الصادقة .

ووجدنا الفرق بين خصائص النظم القرآنى ، فهو المعجز المتحدى به وله أحكامه « لا يمسه الا المطهرون » ولا كذلك السنة . كما فرقوا بين القرآن الكريم والحديث القدسى النبوى من حيث الاسناد ، فالقرآن قد نقل الينا كله بالتواتر كتابة وحفظا ، جميعه ليس منه ما هو بطريق الآحاد .

القرآن كلام الله بلفظه ومعناه

ان القرآن المجيد ـ كلام الله سبحانه وتعالى ـ وليس لجبريل الأمين ملك الوحى ولا للرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ ولا لغيرهما دخل فى شىء منه • انه منزل من عند الله لفظا ومعنى ـ وكان جبريل أمينا فى تبليغه للنبى عليه السلام وكان النبى عليه السلام أمينا فى تبليغه للأمة ، قارئا لألفاظه المنزلة من عند الله ، متبعا لقرآنه • بل كان جمعه فى صدر الرسول بأمر الله « ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه» وقال تعالى: « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ـ واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ـ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربى مبين » •

يقول ابن تيمية (١) : فأمره أن يقول « نزله روح القدس من ربك بالحق » فقوله « نزله روح القدس من ربك » بيان لنزول جبريل فانه نزله على قلبك باذن الله وهو الروح الأمين كما فى قوله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) .

وفى قوله الأمين دلالة على انه مؤتمن على ماارسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة — كما فى وصفه فى الآية الاخرى (وانه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين)

وقوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) يقتضى نزول القرآن من ربه والقرآن اسم للقرآن العربى لفظه ومعناه بدليل قوله (فاذا قرأت القرآن) وانما يقرأ القرآن العربى لا يقرأ معانيه المجردة — وايضا فضمير المفعول فى قوله (نزله) عائد على (ما) فى قوله (والله أعلم بما ينزل) فالذى أنزله الله .

فاذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزله من الله فلا يكون شىء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه . وأيضا فقد قال تعالى عقب هذه الآية (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى

---

(١) كتاب القرآن كلام الله ص ١١٧

يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وهم كانوا يقولون انما يعلمه هذا القرآن العربى بشر .

ولم يكونوا يقولون انما يعلمه بشر أى معانيه فقط بدليل قوله (لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

فانه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذى ألحدوا اليه بأن أضافوا اليه هذا القرآن فجعلوه هو الذى يعلم محمـــدا القرآن لسان أعجمى والقرآن لسان عربى مبين ، وعبر عن هذا المعنى بلفظ (يلحدون) لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم الى هذا الذى أضافوا اليه القرآن . فان لفظ الالحاد يقتضى ميلا عن شيء الى شيء باطل .

فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا ردا لقولهم .

وقوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) .
وقوله (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) .
وقوله (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)
وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من الله لا من غيره كذلك قوله تعالى :

(بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعـــل فما بلغت رسالته) فانه يدل على اثبات ما أنزل اليه من ربه وأنه مبلغ

مأمور بتبليغ ذلك ويقول في قوله تعالى (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصــلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحــــق فلا تكونن من الممترين) ، أن الكتاب المفصل هو القرآن العربى وقد أخبر الله أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم وقال انهم يعلمون ذلك ولم يقل يظنونه أو يقولونه والعلم لا يكون الا حقا مطابقا بمعلوم بخلاف القول والظن الذى ينقسم الى حق وباطل .

فعلم أن القرآن العربى منزل من الله لا من الهواء ولا من اللوح المحفوظ ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا من محمد ولا غيرهما .

واذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الامة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيرا منه من هذا الوجه، وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف فى تفسير قوله (انا أنزلناه فى ليلة القدر) أنه أنزله الى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا حسب الحوادث ـ أو أنه ابتدأ نزوله بعد فى ليلة القدر ـ كما قال العلماء .

ولا يتنافى أنه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى :

(بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال تعالى :
(انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون) .

وقال تعالى : (كلا انها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة .)

وقال تعالى : (وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) .
فان كونه مكتوبا فى اللوح المحفوظ وفى صحف مطهرة بأيدى الملائكة لا ينافى أن يكون جبريل نزله من الله .

واذا كان قد أنزله مكتوبا الى بيت العزة جملة واحدة فى ليلة القدر فقد كتبه كله قبل نزوله .

وقد قال تعالى فى سورة الحاقة (انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) .

فالرسول هنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى فى سورة التكوير (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) .

فالرسول هنا جبريل . فلفظ الرسول مستلزم مرسلا له ولذا لم يقل هنا قول ملك ولا نبي ، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا أنه أنشأ منه شيئا من جهة نفسه ولو كان اضافة الى الرسول لكونه أحدث حروفه

واحدث منه شيئا لكان الخبران متناقضين فانه ان كان أحدهما هو الذى أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذى أحدثها .

وقد كفر الله من جعل القرآن من قول البشر بقوله : (انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم أدبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر •)

ومحمد بشر فمن قال انه قول محمد فقد كفر ـ فالرسول بلغه عن مرسله بلفظه وهو كلام الله الذى أرسله كما قال تعالى :

(وان أحد من المشركين استجارك فأجره • حتى يسمع كلام الله) •

فالذى بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس فى المواسم ويقول : ألا رجل يحملنى الى قومه لأبلغ كلام ربى فان قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى ، رواه أبو داود وفى اثبات أن القرآن من عند الله بلفظه ومعناه يقول صاحب كتاب النبأ العظيم :

«لقد علم الناس أجمعون علما لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربى أمى ولد بمكة في القرن السادس الميلادي ، اسمه محمد بن عبد الله بن

عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله . هـذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لان شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .

أما بعد ، فمن أين جاء به محمد ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟

نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه وانما هو قول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين : ذلكم هو جبريل عليه السلام ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن استاذه نصا من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك الا : «١» الوعي والحفظ ثم «٢» الحكاية والتبليغ ، ثم «٣» البيان والتفسير ، ثم «٤» التطبيق والتنفيذ .

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل وليس له من أمرهما شيء ، «ان هو الا وحي يوحى»

هكذا سماه القرآن حيث يقول : (واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها . قل انما أتبع ما يوحى الى من ربي . سورة الأعراف) ويقول (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، ان أتبع الا ما يوحى الى . سورة يونس)

وامثال هذه النصوص كثير فى شأن ايحاء المعانى ، ثم يقول فى شأن الايحاء اللفظي : (انا أنزلناه قرآنا عربيا سورة يوسف) (سنقرئك فلا تنسي · سورة الاعلى) (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه : سورة القيامة) (اقرأ أول سورة العلق) « واتل سورة الكهف» «ورتل · سورة المزمل » فانظر كيف عبر بالقراءة والاقراء ، والتـــلاوة والترتيل ، وتحريك اللسان ، وكون الكلام عربيا ، وكل أولئك من عوارض الالفاظ لا المعانى البحتة ·

القرآن اذا صريح فى أنه « لا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا لأحد من الخلق ، وانما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه » ·

والعجب أن يبقى بعض الناس فىحاجة الى الاستدلال على الشطر الاول من هذه المسألة ، وهو أنه ليس من عند محمد ·

فى الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضـــيا يقضى بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التى جاءت بلســـان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من جنس « الدعاوى» فتحتاج الى بينة ، وانما هى من نوع «الاقرار» الذى يؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو فى قبوله منه ،

ويتحدى الناس بالاعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة نقول اى مصلحة له فى ان ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخا ؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلهـــا اذ اى مصلحة للعاقل الذى يدعى لنفسه حق الزعـــامة فيزداد بها رفعة وفخامة شأن ، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه .

الذى نعرفه أن كثيرا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منهـــا ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته ، أما أن عاقلا يعمـــد الى أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فينحله لغيره نحلة خالصة لا يستند فيها الى أصل يحاكيه ويحتذيه ، وهو فى ذلك جاد غير هازل ثم يمضى هكذا الى غايته فلا ينكشف أمر ولا يبدو منه مكر فهذا ما لم يلده الدهر بعد (١)

ولو اننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له في موضوعنا تعليلا معقولا ولا شبه معقول اللهم الا شيئا واحدا قـــد يحيك فى صدر الجاهل وهو ان يكون هذا الزعيم قد رأى

---

(١) وما يحكى عن بعض رواة الشعر من أنهم كانوا يصـــنعون الشيء منه وينحلونه لبعض الشعراء الاقدمين فانما كان مضـــاهاة وطبقا على غرار سابق من اقوال هؤلاء الشعراء ثم لم يخف أمرهم على الناقدين .

ان فى «نسبته القرآن الى الوحى الالهى » مايعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه الى نفسه ٠

وهذا قياس فاسد فى ذاته فاسد فى أساسه ٠

أما أنه فاسد فى ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب الى نفسه والكلام المنسوب الى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه الى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئا ، ولا نسبة ما نسبه الى ربه بزائدة فيهـــا شيئا ، بل استوجب على الناس ، طاعته فيهما على السواء فكانت حرمتهما فى النفوس على سواء وكانت طاعته من طاعة الله ، ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم٠

وأما فساد هذا القياس من أساسه فلأنه مبنى على افتراض باطل ، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون فى الوصول الى غاية اصلاحية أن يعبروا اليها على قنطرة من الكذب والتمويه ، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخى كل الاباء ، فان من تتبع سيرته الشريفة فى حركاته وسكناته ، وعباراته واشاراته ، فى رضاه

وغضبه ، فى خلوه وجلوته لا يشك فى أنه كان أبعـــد الناس عن المداجاة والمواربة ، وأن سره وعلانيته كانا سواء فى دقة الصدق وصرامة الحق فى جليل الشئون وحقيرها ، وأن ذلك كان أخص شـــمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه الى يومنا هذا : (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون • سورة يونس) •

القرآن والمستشرقون

ومن المهم أن نرد على أفكار ونتائج لبعض المستشرقين في تاريخ القرآن لا لأنهم مستشرقون ولكن لأنهم تجنوا على الحقائق العلمية الثابتة باسم التطور في المنهج العلمي الحديث وقدر لأفكارهم أن تقرأ في الشرق عندما قدموها له ـ ومن الانصاف أن نقرر أن من المستشرقين من التزم الدقة والمنهج العلمي الصحيح وتخلص من التعصب والهوى فوصل الى النتائج الصحيحة وتلاقى مع المسلمين في تدعيم الحقائق المشرقة في تاريخ القرآن .

والمستشرق الدكتور آثر جفرى في مقدمة كتاب المصاحف لابن أبي داود الذى صححه ووقف على طبعه يعبر عن رأيه ورأى فريق معه منهم نولدكى Noldke الألماني وشوالى Schwally وغيرهما في شن حملة مغرضة همها تشويه تاريخ القرآن الكريم والدعوة الى ازالة قدسيته من نفوس أهله الباحثين بالعبث به .

في المقدمة يدعو الدكتور آثر جفرى المسلمين ويأمل فيهم أن يكون تقديم الكتاب ثمنا وأساسا لبحث جديد في تاريخ القرآن » ويعجب من المسلمين لأنهم لم ينقبوا عن تطور القراءات والقرآن كما بحثت أوربا وعلماء اليهود

والنصارى عن تطور الكتب المقدسة، وماحصل لها من التغيير والتحرير ، دعاهم الى البحث أولا وكانت هذه هى الخطوة الأولى منه • وضرب لهم كقدوة عمل علماء اليهود والنصارى بالكتب المقدســـة • التوراة والانجيل ، ثم يقدم الخطوة الثانية مما يسهل الأمر على الباحثين من المسلمين ـ فقد كتب فعلا علمـــاء الغرب فى تاريخ القرآن ـ وأثبتوا على منهجهم أن القرآن لم يكتب فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ونتائج خطيرة أخرى سموها دقيقة وعلمية ـ وبذلك تبين غرضه بأنه ليس فى حاجة اذآ الى « بحث جديد » وانما يدعو المسلمين الى النقل والتلمذة على المستشرقين فيما وصلوا اليه ونشره فى المجتمعات الاسلامية •• واليك ما قاله آثر جفرى « نتقدم بهذا الكتاب للقراء على أمل أن يكون أساســا لبحث جديد فى تاريخ تطـــور قراءات القرآن •

« نشر فى أيامنا هذه علماء الشرق كثيرآ مما يتعلق بتفســـير القرآن • واعجازه واحكامه ولكنهم الى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور فى قراءاته . ولا ندرى على التحقيق لمـاذا كفوا عن هذا البحث فى عصر له نزعة خاصة فى التنقيب عن تطوير الكتب المقدسة القديمة وعما حصل لها من التغيير والتحوير ونجاح بعض الكتاب فيها» .

وامعانا فى التشجيع على هذه النزعة يغرى الباحثين بأن أبحاثهم ستجد لها مكانا مرموقا فعليهم أن يستهينوا

برأى المتمسكين بقداسة الكتاب . فقد فعل ذلك علماء الغرب بالنسبة لكتبهم المقدسة : يقول :

« أدى هذا الفحص فى الغرب كما هو معلوم الى التنازع والخصام بين المتمسكين بالنقل وبين المتمشين مع العقل أو بعبارة أوضح بين أهل النقل وبين أصحاب هذه الأبحاث . فقال أهل النقل من اليهود والنصارى ان هذا البحث التحليلى ، وكل فحص فى تاريخ الكتاب المقدس ليس الا طعنا فى الدين ونسبوا الى هؤلاء الباحثين عدم الايمان وزعموا أنهم لا يريدون شيئا غير التشكيك والزندقة والالحاد . ولكن آراء المفكرين أصحاب هذه المباحث قد ذاعت الآن وانتشرت حتى طغت آراؤهم على آراء غيرهم ممن يتمسكون بالنقل .

ويرسم آثر جفرى منهج أهل التنقيب فيقول : « فطريقتهم فى البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأهام والتصورات بأجمعها ليستنتجوا بالفحص والاكتشاف ما كان منهما مطابقا للمكان والزمان وظروف الأحوال معتبرين المتن دون الاسناد ويجتهدون فى اقامة نص التوراة والانجيل كما أقيم نص قصائد هوميروس ميردس أو نص رسائل أرسطو الفيلسوف » .

وردنا على آثر جفرى وفريقه أننا لا نعارض فيما وصلوا اليه من نتائج بالنسبة لكتبهم المقدسة ، أما عدم ظهور ابحاث فى تطور القرآن وتحويره وتغييره كالكتب

الأخرى . فالسبب أنه ليس فيه تطور لأنه ثابت ووصل صحيحا فلا تغيير ولا تحوير فلم العجب ؟

هل من البحث العلمي أن يدعو الباحث لخلق نتائج غير موجودة ؟

واذا كان منهج المفكرين أهل التنقيب عند المستشرقين بلغ علمهم فى المنهـــج العلمي وطريقتهم فى البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأهام والتصـــورات بأجمعهـا ويستنتجوا بالفحص والاكتشاف ما يطابق الزمان والمكان بالاجتهاد حسب العقول المتفاوتة المختلفة معتبرين المتن دون الاسناد ؛ فما ذلك الا لأنه لم يتيسر لهم الاســـناد الصحيح فى ثقافتهم الأوربية فى تراثهم القديم ، فبعدت المســـافة بينهم وبين ثقافتهم القديمة ، اذ أن هذا المنهج الأوربى التاريخى الحديث لم يظهر فى أوربا الا فى القرن الثالث عشر وهو مأخوذ من علماء المسلمين ـ جعلوا ليزنوا به ما ليس ثابتا ثبوتا صحيحا ـ كتب عنه ابن خلدون بنفس الاســـم المنهج التاريخى الحديث .. وهو منهج التركيب والتحليل نقله الى أوربا فى العصر الحديث . (١) سينيوبوس ودونو وفريمان . ولما لم يتوفر لأوربا حتى الاسناد الضعيف فكان لا بد لهم أن يركزوا على المتن دون الاسناد .

---

(١) أنظر كتاب مناهج البحث للدكتور محمود قاسم وفصـل تأثر المنهج الادبى بمنهج المحدثين من كتاب الامام البخـارى محـدثا وفقيها ص ٢٥٦ ـ للمؤلف د . الحسينى عبد المجيد هاشم .

فهذا المنهج عند مؤرخى المسلمين وعند علماء أوربا انما يطبق حيث يكون التعارض وتلتبس الحقيقة ولا تظهر ثابتة فى الروايات الصحيحة . فكان شأن من يلجأ لهذا المنهج ويزن به النص الثابت من الحديث والقرآن مما توفرت روايته وصحة ثبوته شأن من يريد أن يزن الذهب المكنون بميزان الحديد والتراب فيخفق فى التقدير ...

من هنا نشأت عندهم فكرة نقد المتن دون الاسناد - وهى التى نادى بها جلدتسيهر اليهودى فى كتابه العقيدة والشريعة لغرض التشكيك فى القرآن والسنة الصحيحة .

ان لنا نحن المسلمين منهجا فى القرآن وقراءاته من القرون الأولى يسمو على ذلك المنهج وقد طبق واستقر بالنتائج الثابتة .

لقد اعتبر الاسناد الصحيح خصيصة لثقافتنا الاسلامية وقال علماؤنا الاسناد من الدين . وحيثما نجد الاسناد الصحيح نجد المتن المعجز للعقول أن تتسامى الى بلاغته التى هى سر لغتنا والمعنى الصادق . وحدد علماء الاسلام فى منهجهم الفريد شروطا دقيقة لصحة الاسناد من العدالة والضبط واتصال السند وموافقة الثقات مما انتج صحة المتن فكان بذلك منهجنا الاسلامى منذ قرون سحيقة فائقا باعتبار الاسناد والمتن معا . لا دخل للظنون والأوهام

فى تاريخ القرآن وقراءاته ولا مجال للروايات الضـــعيفة فى تاريخه وقراءاته • ولذلك كان الاستقرار والثبوت •

واليك ما شرطه علماء الاســـلام من منهج دقيق فى القراءات المقبولة فى القرآن ورفض ما لم يتفق مع هذا المنهج واعتباره شاذا وليس من القرآن ومنه تعلم لماذا لم تكن القراءات خاضعة للتطور ـ ولماذا كانت الثقـــة بأن ما وصل الينا من القرآن كان متنه صحيحا موثوقا به بأنه كما هو النص الثابت القطعى طبقا لما أنزله الله عن طريق جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فى العرضة الأخيرة وبالتالى لما نطقه النبى صلى الله عليه وسلم •

اشترط العلماء للقراءة المقبولة : صحة الاسناد فلم تقبل قراءة أحد من القراء الا اذا ثبت أخذه عمن فوقه بطريق المشافهة والسماع عن العدول الحفاظ حتى يتصل السند بالصحابى الذى أخذه من فى رسول الله صلى الله عليه وســـلم الذى تلقاه عن جبريل عن رب العزة الذى أنزله « قل نزله روح القدس من ربك بالحق »

ويقـــول ابن الجزرى فى كتابه منجد المقرئين ان القراءات لم تثبت الا بالاسناد المتواتر •

الشرط الثانى أن يوافق اللغـــة العربية •• الشرط الثالث ان يوافق المصاحف العثمانية وهى التى كتبت من نسخة جمع أبى بكر الذى كتب مما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت ذلك ثبوتا قاطعا لا كما ظن

المستشرق ومن معه . فالاتصال ثابت تلقيا وكتابة فى كل حرف من حروف القرآن فليس كما يقول المستشرق فولدكه ــ أن أوائل السور دخيلة(١) على نص القرآن. كما ذكر فى الطبعة الاولى لكتابه عن تاريخ الدراسات القرآنية هذا الكتاب الذى قال آثر جفرى انه أساس كل بحث فى القرآن فى أوربا ــ فيقرر فى نظريته : لا نرى فى أوائل السور الا حروفا أولى وأخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة فالسين من سعد بن ابى وقاص والميم من المغيرة والنون من عثمان بن عفان . والهاء من أبى هريرة وهكذا . ومثل هذه الأفكار التى لا تستند على نقل ولا عقل يلقى بهـــا المســـتشرقون فى دراسات القرآن لتكون نظرية تبحث وتحلل للتشكيك فى القرآن وهذه هى طريق فولدكه فى كتابه الذى يوجه اليه آثر جفرى المسلمين لينهجوا نهجه . ثم بعد أن بذر سموم هذه النظرية وآثارها فى الطبعة الاولى رجع عنها وأهملها شفالى فى الطبعة الثانية ولكن المستشرق بهل Buhl وهرشـــفيلد Hirschfeld يتحمسان لها من جديد ويتبنيانها وتكون هذه المفتريات محل أخذ ورد وتحليل بين المستشرقين ويرد بلا شير ومعه لوث ــ وبوير ــ مستبعدين أن يفعل الصحابة الورعون ذلك مع ورعهم فيدخلوا عناصر غير قرآنية فى الكتاب المنزل .

(١) انظر مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصـــالح ص ٢٤١ .

وهكذا نرى منهج المستشرقين الذى يشيدون به ينتج قضايا ونظريات وهمية غير ثابتة تتغير من طبعة الى طبعة ويكذب بعضهم بعضا ـ وذلك لادخال عنصر الهوى والغرض من ناحية بقصد التشكيك ثم لبعدهم عن السند الصحيح. مع أن من أوليات المبادىء أن يفرق الانسان حتى فى الأخبار العادية بين خبرين في أمر واحد أحدهما جاء به ثقة والآخر جاء به غير ثقة ، أما المسلمون وعلماؤهم فقد أحاطوا القرآن بما هو أهله من العناية وفرقوا بين نص الخالق الذى ليس كمثله شىء وبين نص المخلوق .

وفرق النبى صلى الله عليه وسلم بين العناية بالقرآن وبين أى كلام آخر حتى ولو كانت أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فجعل للقرآن كتابا . وبالغ فى الحيطة فخصصهم لذلك وقال كما ورد فى صحيح مسلم : لا تكتبوا عنى غير القرآن ..

وأمرهم بالتبليغ « بلغوا عنى ولو آية » فبلغوه كما سمعوه رواية وكتابة وانتهج الصحابة العدول نهجه حتى وصل الينا فأى المنهجين أهدى سبيلا ؟ ان الذى يعتبر المتن دون السند انما يؤلف ويستنتج لذوقه وهواه ويتعارض مع نفسه مرة ومع غيره أخرى وفرض رأيه بهذه الطريقة جناية على البحث التاريخى العلمى الصحيح .

ونولدكة هذا الذى قدمنا نموذجا من نظرته للقرآن ترى الدكتور آثر جفرى بعد ان جهر بها حصل بالنسبة

للكتب المقدسة فى أوربا يرى أنه صاحب الأبحاث الدقيقة ويقدمه للباحثين المسلمين لينقلوا عنه آراءه فى تاريخ القرآن . والذى ينقل عن هذا المستشرق الذى ينظر للقرآن هو واخوانه على أنه كتاب مزيف يكون جديرا فى نظر آثر جفرى والمستشرقين اخوانه بلقب الباحث الحر المفكر الحديث ولا يكون كذلك من ينقل الحق عن أهله علماء القرآن وقراء القرآن .

وهل ينبت الخطى الا وشيجه
وتغرس الا فى منابتها النخل

ولم يكن آثر جفرى أمينا بل كان متجنيا حتى على اخوانه المستشرقين حينما ذكر آراء الفريق الذى يدين بمذهبه على أنه رأى علماء الغرب دون أن يشير الى أن من المستشرقين علماء الغرب من وصلوا الى نتائج متفقة مع المسلمين فى اشراق تاريخ القرآن وثبوته .

قال آثر جفرى « بدأ نولدكى (Noldke) الألمانى باستعمال طريقة البحث هذه فى نص القرآن الشريف فى كتابه الجليل المسمى تاريخ القرآن نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٠ م . وهو الآن أساس كل بحث فى علوم القرآن فى أوربا ثم ضم اليه تلميذه شولى (Schwally) فى الطبعة الثانية نتائج التوقيفات الحديثة وأتم العمل برجشترا سر (Bergstrasser) ثم برتزل Pretzl ولما ظهرت الطبعة الاولى من كتاب نولدكى تجنى عليه بعض

أصحاب النقل في الشرق وزعموا أن الذين يتبعون هـذه الطريقة ليسوا خالين من المحاباة فيأبحاثهم مع أن انصافهم وصدق نيتهم وعدم محاباتهم ظاهر ويتبين من كتبهم أنهم لا يرومون الا الكشف عن الحق وكان عيبهم الوحيد في أعين أهل النقل أنهم يعتبرون المتن دون الاسناد ويختارون من آراء القدماء ما يطابق ظروف الأحوال من أسـانيد متواترة أم ضعيفة فكثيرا ما تناقض نتائج أبحاثهم بهذه الطريقة تعليم أهل النقل الذى عرف بين العلماء منذ زمن بعيد » .

وبهذا المنهج الذى لا يفرق بين الروايات الضـعيفة والصحيحة وصل المستشرقون الى نتائج لا يعترف بها المسلمون الذين يتمسكون بالنصوص الصحيحة . وقد لخص هذه النتائج آثر جفرى وقدمها على حد تعبيره — افادة للقراء ومثالا ينسج عليه الباحثون — قال

« لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى أيدى قومه كتاب . قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان كلما نزلت عليه آيات أمر بكتابتها وكان يعرض على جبريل فى كل سنة ما كتب من الوحى فى تلك السنة وعرضه عليه مرتين سنة موته وهكذا جمع القرآن كله فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم في صحف وأوراق وكان مرتبا كما هو الآن فى سوره وآياته الا أنه كان فى صـحف لا فى مصاحف . وهذا الرأى لا يقبله المستشرقون لانه يخالف

ما جاء فى أحاديث أخرى انه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن فى شىء وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وابى بكر الصديق لما استحر القتل بالقراء فى يوم اليمامة وقالا ان القتل قد استحر فى قراء القرآن ونخشى أن يستحر القتل فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ويتبين من هذا أن سبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما وفضلا عن ذلك فان علماء الغرب لا يوافقون على أن ترتيب نص القرآن كما هو اليوم فى أيدينا من عمل النبى صلى الله عليه وسلم » .

وتناقش المستشرقين فى قولهم وأدلتهم — فنجد أن ما نفوه هو ما أثبتته كتب الصحاح فقد عرض القرآن مرتين قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

روى البخارى عن فاطمة أن النبى صلى الله عليه وسلم أسر اليها أن جبريل يعارضه بالقرآن كل سنة وانه عارضه فى العام الذى توفى فيه مرتين وقال لهما ولا أراه الا قد حضر أجلى .

وروى البخارى عن أبى هريرة : كان القرآن يعرض على النبى كل عام فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض فيه وقال البغوى فى شرح السنة أن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة وكتبها لرسول الله وقرأها عليه . وكان يقرىء الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمده ابو بكر وعمر فى جمعه وولاه عثمان كتب المصاحف .

وقد كان من كتاب الوحى ثقات منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وابان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس • والمستشرق بلاشير عد من كتاب الوحى أربعين رجلا •

ولقد بلغ من حرص النبى صلى الله عليه وسلم على كتاب الوحى والعنـاية به ألا يكتب كتاب الوحى غـير القرآن • جاء فى صحيح مسلم عن أبى سعيد (لا تكتبوا عنى غير القرآن)

وأخرج الحاكم بسنده على شرط الشيخين عن زيد ابن ثابت قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسـلم نؤلف القرآن فى الرقاع (١) (وتطلق على الورق والجلد) • وكانت عندما تنزل آية وآيات يقول النبى صلى الله عليه وسلم ضعوا كذا فى موضع كذا على وجه التحديد الذى علمه اياه جبريل عن ربه •

وتعجب لمنهج المستشرقين الأبتر حينما نجد أن نفس الحديث الذى استنتجوا منه أن القرآن لم يكتب فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بناء على خوف عمر وأبى بكر على القرآن خشية موت القراء ـ انما يدل على عكس ما دعوه ويثبت صراحة وجود كتابة القرآن فى عصر الرسول وبين يديه ـ فأى منهج هذا الذى يدعونه وينسبون اليه

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٦٠

الاستيعاب للروايات وطريقة التحليل والتركيب مع أنهم لم يستوعبوا حتى نص الحديث الواحد كاملا أو بعبارة أدق يبترون الحـــديث فيأخذون منه باستنباط الخاطىء ما يؤيدهم ويتركون ما يوضـــح الأمر صراحة على خلاف ما يقولون ، انه حديث صحيح رواه البخارى ونرى لزاما ان نذكره كاملا حتى ندرك مدى عدم الثقـــة فى نقل المستشرقين .

روى البخارى فى صحيحه بالسند المتصل أبن زيد ابن ثابت قال : أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة . فاذا عمر ابن الخطاب عنده فقال أبو بكر ان عمر بن الخطاب أتانى فقال : ان القتل قد استحر بقراء القرآن في موقعة اليمامة وانى أخشى ان يستحر القتل بالقراء فيذهب كثير من القـــرآن . وانى أرى ان تأمر بجمـــع القـــرآن . فقلت لعمر كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر :

انك رجل شاب عاقل لا نتهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وســـلم فتتبع القرآن فاجمعه . فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان على أثقل مما أمرنى به من جمع القرآن . فتتبعت القرآن أجمعه من العســـب (جريد النخل) واللخاف (الحجارة

الدقاق) وفي رواية الاكتــاف (جمع كتف عظم البعير) والاقتاب (الخشب الذى يوضع على ظهر البعير) وصدور الرجال ووجدت آخر سورة براءة مع أبي خزيمة لم أجدها مع غيره : لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، حتى خاتمة براءة (أى لم يجدها مكتوبة مع غيره) فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهم •

وهذا الحديث موجود فى كتاب المصاحف لابن أبى داود الذى طبعه ابن جفرى وقدم له وزكاه بل ووثقه • وفى كتاب المصاحف لابن أبى داود أن عمر قام فى الناس فقال من تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به وكانوا كتبوا ذلك فى الصــحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان • هذا فضلا عن النسخة الموجودة فى بيت الرسول فكان كل ما يكتب يوضع فى بيت الرسول وينسخ الكتاب لأنفسهم نسخا مما كتب بين يديه • وتعاونت النسخ مع النسخة الأصلية والحفظ فى جمع القرآن •

فكيف يفسر المستشرقون فى الحديث الذى اعتمدوه ورواه البخارى ـ ما جاء صراحة من قول أبى بكر لزيد « أنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أليس فى ذلك صراحة لااستنباطا أن زيدا كان يكتب الوحى لرسول الله فكيف نتصور أن

ينفى ذلك عاقل فضلا عن أن يكذب زيد نفسه وينفى ذلك فيما بعد ؟

ثم بم يفسر المستشرقون قول زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف . أليس فى ذلك دليل على أن القرآن كان مكتوبا وكان بين يدى المسلمين كتاب لا كما يدعى المستشرقون ؟ وبم نفسر قول ابن أبى داود وكانوا كتبوا ذلك فى الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان ؟ لقد فسر العلماء ومنهم ابن حجر الشاهدين بالكتابة والحفظ والتثبت بأن ما كتب وتلقى كان بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكرنا رواية ابن أبى داود فى كتاب المصاحف وان كانت لا تبلـغ درجة رواية البخارى عندنا وذلك لأن آثر جفرى شـــهد لابن أبى داود فى ص ١٢ من مقدمة كتابه المصاحف ورد على قول الدارقطنى فى ابن أبى داود بأنه ثقة الا أنه كثير الخطأ فى الكلام على الحديث . وان والد أبى داود كذبه فى غير حديث .

فقال آثر جفرى هذه تهمة لم يرض بها المستشرقون لانها لم تقم عليها حجة من الاحاديث التى رويت عنه ولانهم اختبروا أحاديثه على قاعدة البـحث الجـــديدة فوجدوها صحيحة صادقة وعللوا ذلك بأن نشأة هذه التهمة من كونه يروى أحاديث شاذة لا يرضى عنها أهل النقل «فابن أبى

داود فى نظرهم ثقة لمجرد انه يروى الضعيف الشاذ . وكأن منهجهم انهم مع توثيقهم لابن أبى داود فلا يتقبلون الا الروايات الشاذة فقط ويفسرونها حسب الهوى ويرفضون ما رواه من روايات صحيحة جاءت فى كتب الصحاح .

ونحن لا نجبر المستشرقين على الايمان بالقرآن « لا اكراه فى الدين » ولكن أما وقد ادعوا البحث العلمى الحر وأوهموا أنهم يقبلون البحث عن الحقيقة من مصادرها فى الروايات فعليهم ان يلتزموا بذلك ومن حقنا أن نناقشهم فى القضايا النقلية والعقلية . أما وقد ثبت النقل على خلاف ما ادعوه ـ فأى عقل هذا الذى يسوغ أن الصحابة بلغوا من السذاجة أن يكذبوا أنفسهم فى حديث واحد فيه ثبوت الكتاب صراحة ونفيها استنتاجا على حسب ما فهم المستشرقون ؟

ان خوف أبى بكر وعمر انما يفسر بخشيتهم أن يذهب القراء والنسخة مفرقة بين العسب والاقتاب والألواح فلشدة الاحتياط خافوا أنه ربما بمرور الأيام تتبعثر الأجزاء المكتوبة فى بيت النبى عليه السلام فى زمن لا يوجد فيه كتاب الوحى الذين كتبت النسخة بأيديهم فربما حصل اللبس فى جمع أجزاء النسخة المفرقة على الترتيب الذى علموه وكتبوا عليه من النبى عليه السلام .

أما قولهم كيف نفعل شيئا لم يفعله الرسول فأيضا

من الورع والرهبة والاجلال أمام كتاب الله أن يتصرفوا أى تصرف ولو شكلى . وكان الشيء الجديد الذى أشفقوا منه هو جمعه بين اللوحين ونقله ممـــا كتب أمام الرســول فى صحف لم يحضرها الرسول وان كانت مما كتبت بين يديه وبالمراجعة تبينوا وشرح الله صدورهم وعلموا بأن هذا خير لا ينافى ما فعله الرسول من كتابته للقرآن ـ فجمعه الشاب العاقل الذى لم يتهم وكان يكتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم جمعه بأمر الخليفة الأول ومعـــاونته وباشارة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ومعاونته وتعاون الصحابة المعدلون فكتب القرآن على أدق وجه وحفظ كما أنزل .. فهذا الجمع هو الجمع الثانى للقرآن ـ والتطور انما هو فى أدوات الكتابة فقط وكان أبو بكر بذلك صاحب الجمع الاول بعد الرسول بالنسبة لجمعه بين اللوحين كمـــا روى الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر . ان أبا بكر أول من جمع القرآن بين اللوحين .

وقــد حث النبى صــلى الله عليه وسلم على توريث المصحف مما يدل على وجوده زمن الرسول فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ، علما علمه ونشره ، أو ولدا صالحا تركه ، أو مصحفـا ورثه . رواه ابن خزيمــة فى صحيحه وابن ماجة والبيهقى وقال الحارث المحاســبى فى كتاب فهم السنن : كتابة القرآن

ليست بمحدثة ، فانه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب ، فانما أمر الصديق بنسخها من مكان الى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن . منتشرا فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لايضيع منها شيء قال : فان قيل كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال ؟ قيل لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف قدشاهدوا تلاوته من النبى صلى الله عليه وسلم عشرين سـنة فكان تزوير ما ليس منه مأمونا وانما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه(١) .

ثم نرى أن المستشرق يفرض صحة رأى علماء الغرب ويعنى بهم الموافق لهواه ويترك رأى علماء الاسلام ورؤاياتهم الصحيحة واجمـاعهم فأولئك كما ذكر لا يوافقون على أن ترتيب نص القرآن كما هو اليوم فى أيدينا من عمل النبى صلى الله عليه وسلم .

ونحن المسلمين نوافقه على أنه ليس من عمل النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه كما أنزل على النبى عليه السلام وبلغه للناس .

ومن الغريب أنهم يدفعهم الهوى المسـمى بالمنهج

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٥٨

العلمى العقلى الى القول بعدم رسمية صحف أبى بكر فيقولون « وأما المصحف الذى جمعه زيد بن ثابت لأبى بكر الصديق فكان فى رأى المستشرقين مصحفا خاصا لا رسميا كما زعم بعضهم » .

وهكذا يطلق المستشرقون الدعوة بدون دليل مطلقا وبدون تعليل لا لشىء الا لأنهم رأوا هـذا وعلى تلامذتهم ليكونوا أصحاب فكر أن يقبلوا ما يقولونه هم بلا مناقشة .

وأى أمر رسمى يكون ويسمونه اذا لم يسموا أمر الخليفة الحاكم أمرا رسميا ، وقد كان بناء عن مشورة الرجل الثانى فى الاسلام مساعد أبى بكر والخليفة الثانى للاسلام بعده عمر بن الخطاب ودعوا الكاتب الرسمى للوحى الذى كان يكتب للرسول ـ وعهد اليه أبو بكر جمع القرآن بهذه الصفة وتعاون معه المجتمع وأبو بكر وعمر ـ وطرح الامر على بساط البحث والامر ليس هو أثاث بيت أو أمرا خاصا بأبى بكر وانما يتعلق بدستور الدولة الخالد وكتابهم المقدس ـ وكان الجمع بناء على خشية أن يستحر القتل فى القراء فيذهب القرآن ـ لا خشية أن ينساه أبو بكر ؟

فأى عقل هـذا الذى يعتمدون عليه فى دعواهم بأن جمع أبى بكر كان خاصا وليس برسمى ؟ ومن نتائج المستشرقين رفض ما جاء فى الاحاديث الصحيحة وقال به المسلمون من أن النسخة التى جمعت بأمر أبى بكر وكانت

عند عمر ثم عند حفصة هى التى جمع منها عثمان يقول :
«وزعم بعض العلماء أن عثمان انما أخذ من حفصة النص الرسمى الذى كتبه زيد بن ثابت لابى بكر» • ثم يكذب ذلك ويشك ومعه أصحابه المستشرقون - ثم يعللون هذا الشك بأن اختلاف الأمصار كان سببا فى أن عثمان أمر زيد بن ثابت بتأليف ما فى أيدى أهل المدينة من القرآن لا على أن يكون هذا الجمع والتأليف مصحفا لأهل المدينة فقط كما كانت نسخ ابن مسعود مصحفا لأهل الكوفة ونسخة أبى موسى مصحفا لأهل البصرة بل جمعه ليكون المصحف الرسمى لجميع الامصار» •

ونحن لا نصدق أن المستشرقين بلغوا من السذاجة أن يكونوا صادقين مع أنفسهم فى هذا التعليل الذى لا ارتباط له بالدعوى - بل المعقول ليكون المصحف عاما رسميا أن يؤخذ عن النسخة الرسمية ليكون المصحف الرسمى لجميع الامصار • وهذا المعقول هو ما جاء به المنقول فى الصحاح •

ومع ذلك يرفضه آثر جفرى ، ونولدكى ، وشوالى وبرجشترا سر • وبرتزل كما جاء فى مقدمة كتاب المصاحف لابن أبى داود - وأما المستشرق كازانوفا كما ذكر صاحب مباحث فى علوم القرآن ، فكان مكشوفا حينما دعته عقيدة الحقد أن يقول : ان جمع عثمان للمصحف فى نظره ليس الا قصة وهمية أحكم نسجها فى عهد الخليفة عبد الملك بن

مروان توطئة للمبالغة فى شأن التحسينات التى ادخلت على رسم المصاحف فى عهـــد الخليفة المذكور . وكأن المقياس المعقول عند المستشرقين هو ما كان ضد الواقع والروايات الصحيحة وأحدث ثغرة وتشكيكا فى ثبوت القرآن وتسلسله بالثقات فمنهم من يريد أن ينسف رسمية جمع أبى بكر ، أو على الأقل أهميته حيث لم يكن له أثر فى مصحف عثمان . ومنهم من يرفض جمع عثمان ـ وهؤلاء هم أصحاب المنهج العقلى الحر فى نظرهم .

وانا نسوق لهؤلاء رواية أصح كتاب بعد كتاب الله لترد عليهم : روى الامام البخـــارى عن أنس بن مالك ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتـــح أرمينية وآذربيجـان فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال لعثمان أدرك الامة قبـــل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى فأرسل الىحفصة أن أرسلى الينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأخذ زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف : الحديث

فمصحف سيدنا عثمان رضى الله عنه رسمى ـمتصل الاسناد فى نقله عن صحف أبى بكر الرسمية أيضا المتصلة بالاسناد بالنقـــل ما كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم المتلقى عن جبريل عن ربه فقدر لهذا الكتاب أن يتصل

اسناده بالتلقى والسماع والمشافهة ـ فهو القرآن المقروء والكتاب المكتوب ـ ورثناه جيلا عن جيل كما كتبه النبى وكما قرأه النبى صلى الله عليه وسلم •

ولكن المستشرقين يثيرون اختلاف القراءات فيرون انها بحرية الاختيار والاجتهاد خاضعة للتطور والهوى ـ لا عن توقيف من النبى صلى الله عليه وسلم •

يرى ذلك آثر جفرى وفريقه ـ وهو مقلد لأستاذه جولد تسيهر فى ذلك فقد ذكر جولد تسيهر فى كتابه اتجاهات المفسرين ذلك ويقول الاستاذ عبد الوهاب حموده وكان كل هم جولد تسيهر(١) أن يدلل على أن الاختلاف فى القراءات (٢) انما كان عن هوى من القراء لا عن توقيف ورواية وهذا هو سر خطئه فى منهجه حيث لم يعتبر أن القراءات انما هى رواية بالسند الصحيح وهى سنة يتبعها الآخر عن الأول ونسى أن القراء لم يأخذوا قراءاتهم الا بعد بحث وتمحيص للسند وللرجال الذين أخذوا عنهم • ونسى أيضا مقياسهم الذى رسموه ليميزوا بين صحيحها وسقيمها وبين متواترها وشاذها ثم نقله عن كتب غير جديرة بالنقل والارتكان الى آراء ضعيفة لا يقيم لها علماء القراءات وزنا،

---

(١) القراءات واللهجات للاستاذ عبد الوهاب حمودة

(٢) المذاهب الاسلامية لجولد تسيهر ص ٢٦٨

هذا الى خطئه فى فهم النصوص يقول جولد تسيهر : «القسم(١) الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب فى ظهوره الى خاصية الخـــط العربى فان من خصـــائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحتها • وعدم وجود الحركات النحوية ، وفقدان الشكل فى الخط العربى جعل للكلمة حالات مختلفة كانت السبب الأول فى ظهور حركة القراءات فيما أهمل نقطه وشكله فى القرآن » •

ولم يعلم جولد تسيهر أن التلقى للقراءات ولحفظ القرآن ـ سابق للتدوين ـ وأن السليقة العربية لا يعجزها عدم وجود الحركات النحوية • فقد كانت الآيات تقرأ على الكتاب قبل الكتابة يحفظون ويكتبون ويقرأون وهكذا ومع ذلك فعندما أرسل سيدنا عثـــمان المصـــاحف أرسل معها قراء ـ ونحن الى اليوم لا نخطىء بالنسبة للتلقى أن نقرأ• الم ـ ألف لام ميم • ولا نقرأها ـ ألم ـ مثلا وهكذا فى كثير من أوائل السور وغيرها ـ بل آثر جفرى نفسه وهو دخيل على اللغة العربية لم يعجز عن نقل كتاب المصاحف وهو يقول : ان نسخة الظاهرية خطها قليل النقط مع انه لم يسمعها من غير تشكيل •

يقول أبو شامه فى شرح الشاطبية : « والقراءة نقل

---

(١) المذاهب الاسلامية ص ٤ .

فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى وليس اتباع الخط بمجرده واجبا ما لم يعضده نقل . فان وافق فبها نعمت، ذلك نور على نور كما في قوله تعالى في سورة الحج «ولؤلؤا» فقرأ عاصم ونافع بالنصب هنا وفي فاطر والباقون بالجر فيهما . وقد رسم بالألف في الحج خاصة دون فاطر . فلو اتبعوا الخط والرسم فقط لقرءوا مافي الحج بالألف، وما في فاطر بالخفض » .

أما المستشرقون فلا يتورعون أن يصروا على ان الرواية ترد الى ذوق القارىء وعدم استساغة المعنى - ويمثل جولد تسيهر فيقول « وتتجلى هذه الظاهرة ظاهرة القراءة لأن المعنى غير مستساغ في نظر القارىء في قوله تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الفتح حيث يخاطب الله النبي قائلا « انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا» .

فقرأ بعضهم بدلا من « تعزروه » بالراء « وتعززوه » بالزاى من العزة والتشريف واني أرى في الانتقال من تلك القراءة الى هذه القراءة وان كنت لا أجزم بذلك ، أن شيئا من التفكير في تصور ان الله قد ينتظر مساعدة الانسان قد دعا الى ذلك .

ثم يقول جولد تسيهر ثانيا : والتعبير بعزز تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية مع أن اللغة العربية لا تفرق بين « عزر » و « نصر » .

وهكذا يكذب المستشرق نفسه فاذا كانت اللغة لاتفرق بين عزر ونصر فهما بمعنى واحد ـ فهو معنى تعززوه فأى نص غير مستساغ هنا فى احدى القراءتين اللتين هما بمعنى واحد ؟ وتقول فى قراءة قتادة لقوله تعالى : « فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم » انه رأى القتل انه من القسوة والشدة بحيث لا يتناسب مع الفعل فقرأ «فأقيلوا أنفسكم» أى حققوا الرجوع والتوبة بالندم على ما فعلتم يقول : وفى هذا المثال نرى وجهة نظر موضوعية كانت سببا الى القراءة المخالفة » .

وبهذا المنهج يشكل جولد تسيهر أولا فى قراءة فاقتلوا لانها لا تلائم العقل ـ عقل المستشرقين فهى من القسوة بحيث لا تتناسب مع الفعل وذلك لأن جولد تسيهر يهودى والاية متصلة بشأن اليهود ثم يؤدى غرضه من التشكيك فى القرآن ـ ولقد عبر عن هذا الرأى بعلته بقوله « رأى شيخ المفسرين قتادة البصرى المتوفى سنة ٦٧١ م» ولم يقل قتادة هذا التعليل وان كان قد قرأ القراءة ـ ولم يفسر قراءته بمثل ما فسرها جولد تسيهر . وليس معنى اختيار قراءة ابطال الاخرى فتكون كل قراءة منسوبة للبطلان عند من لم يقرأ بهـا ـ وهـذا افتراء

وتشكيك خبيث ـ وليس كما زعم أن من حـق قارىء أن يجتهد ويختار ـ انما هى الرواية والنقل الصحيح .

وبهذا الخطأ يستمر جولد تسيهر باسم منهج «تحليل القراءات» يهـدم فى القراءات ويعلل الاختـلاف بأسباب يختلقها ، من ذلك قوله : «ان بعض هذه الاختلافات فى القراءة ترجع أسبابها الى الخـوف من أن تنسب الى الله ورسوله عبارات ، قد يلاحظ فيها بعض أصحـاب وجوه النظر الخاصة ما يمس الذات الالهية العالية أو الرسول أو مما يرى أنه غير لائق بهذا المقام وهنا تغيرت القراءات من هذه الناحية بسبب الافكار التنزيهية » .

وضرب لذلك قراءة «عجبت» ، بالفتح بدل الضم للتاء قال «فى سورة الصافات آية ١٢ ذكر الله لنبيه أن هؤلاء المشركين من أهل مكة ينكرون البعث بعد الموت والنشور والبلى فيقول تعالى «فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا (من السموات والارض والنجوم وما عددناه قبل ذلك) انا خلقناهم من طين لازب · بل عجبت ويسخرون » فاختلف القراء في قوله تعالى بل عجبت ويسخرون فقرأته عامة أهل الكوفة بل عجبت بضم التاء · وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وهى قراءة ابن مسعود ، وقرأ بعض قراء أهل الكوفة ، بل عجبت بالفتح للتاء · وعلل ذلك بقوله: «ويظهر أن العلماء قدروا فى اسناد العجب الى الله مالا

يليق فقرأوا بالفتح (عجبت) والمعنى بل عجبت أنت يامحمد وهم يسخرون من القرآن » .

ولو أخذ العلماء بمقياس جولد تسيهر واخوانه المستشرقين . لحصلت الفوضى بالتغيير والتبديل والحذف من القرآن كل جاهل بشيء ـ مالم يفهمه . ان اسناد العجب لله جاء في رواية البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل(١) . فمعنى عجبت في الآية أي عظم فعلهم عندي وسأحاسبهم على ذلك .

لقد فسر الامام الطبري القراءتين ثم قال في توجيههما « والصواب من القول في ذلك أن يقال انهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب . فان قال قائل: وكيف يكون مصيبا القارىء بهما مع اختلاف معنييهما ؟

قيل : انهما وان اختلف معنياهما فكل واحد من معنييه صحيح : قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل وسخر منه أهل الشرك بالله . وقد عجب ربنا من عظيم

---

(١) ٦ ١٠٠٩ جـ ٦ فتح الباري

ما قاله المشركون فى الله سخر المشركون بما قالوه ٠

فان قال أكان التنزيل باحداهما أو بكلتيهما ؟ قيل التنزيل بكلتيهما فان قال : وكيف يكون تنزيل حرف مرتين ؟ قيل انه لم ينزل مرتين ٠ انما أنزل مرة ولكنه أمر صلى الله عليه وسلم أن يقرأ بالقراءتين كلتيهما(١) » ٠

والذى ذكره الطبرى يؤيده الحديث المروى عن الشيخين البخارى ومسلم ٠

وفيه اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم فى قراءة سورة الفرقان فكل منهما يقول فى قراءته هكذا أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما ذهبا اليه قال الرسول اقرأ ياهشام ثم قرأ عليه القراءة التى سمعها عمر ٠ فقال : هكذا أنزلت ، وكذلك قرأ عمر فقال الرسول : هكذا أنزلت ٠

ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه ٠

فليست القراءة بالاجتهاد ـ ولكن لتكون كما قال الرسول (هكذا أنزلت) وكما قال فى رواية (فاقرءوا كما علمتم) وكل رواية تخالف هذا النص الصحيح الصريح فهى رواية غير صحيحة ـ ولا تتفق مع الحديث الصحيح الصريح

---

(١) ٢٩/٢٣ تفسير الطبرى

ولا تتفق مع القرآن الكريم : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » ، وقوله : « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى » ـ اذا كان النبى لا يستطيع أن يبدل فهل نحن لنا ذلك أيها المستشرقون وأيها المستغربون ؟

ويعلق صاحب كتاب « القراءات(١) واللهجات » على توجيه الطبرى للقراءة بقوله : هذا مقياس علمائنا فى القراءات ومقياس معشر المستشرقين ـ ان الخلاف بيننا وبين المستشرقين خلاف على المبدأ والمنهج فالمبدأ عند علمائنا فى جميع منابع الثقافة الاسلامية هو اثباتها أولا عن طريق الرواية والبحث فيها اسنادا ومتنا . ووضعوا لذلك مقاييس ليس بعدها دقة ، وعلماء المناهج الحديثة مازالوا يقلدونهم، ولم يأتوا بجديد يخالف كثيرا مما وضعه علماء الرواية من أئمة المحدثين . أما المستشرقون فلا يعترفون بغير المتن ولا يقرون اثبات شيء من طريق الرواية وانما كل همهم امتحان النص امتحانا لا يقوم على أصول ثقافية ولا قواعد منهجية وأكبر الخطأ فى منهج (جولد تسيهر واتباعه) جعلهم القراءت كلها على قدم المساواة ونسيانهم ان هناك قراءات شاذة وقراءات ضعيفة وان هذه القراءات الشاذة قال فيها العلماء هى كتفسير فقط للقرآن ولم يعدوها من القرآن ولم يجعلوها فى درجة واحدة وانما بينوا بعد بحث

---

(١) الاستاذ عبد الوهاب حمودة .

واطلاع على السند والرجال صحيح القراءات من شاذها ومتواترها وآحادها فجزاهم الله عن القرآن خير الجزاء .

ولقد صـدق آثر جفرى فى شىء واحد وهو قوله (لا يخفى على القارىء أن نتيجة هذه الابحاث لا تتفق مع ما عليه المسلمون من تاريخ القرآن ولا يهمنا فى بحثنا هذا كونه حقا أو باطلا انما المهم هو بيان ما وصلنا اليه بعد التحرى والتنقيب) .

ونقول لآثر جفرى ان هذه النتائج حقا لا تتفق وما عليه المسلمون ـ وتبين من تحليلك انك لم يهمك أن تكون النتائج حقا . وقد تجنيت على اخوان لك من المستشرقين حينما أعطيت لنفسك حق أن نقول لما وصلت اليه هذا رأى علماء الغرب وتقول بالنسبة لنتائج المسلمين ـ وهذا الرأى لا يقبله المستشرقون ، بل ان نتائجك لا تتفق مع المنصفين من المستشرقين أيضا وانه من حق الانصاف أن نعطى كل ذى حق حقـه ـ فنحمـد للمنصفين من المستشرقين دقتهم العلمية وبعـدهم عن الهـوى وتكذيبهم أصحاب الهوى ـ ونعرض ذلك ليـكون حجة على المولعين بآثار الغرب علهم يتبعون من وافقونا انصافا لا من خالفونا حمقا .

لقـد كتب(١) (سير وليم موير) فى دقة القـرآن

---

(١) راجع موير (حياة محمد) نقلنا الترجمة مختصرة من كتاب بيكل حياة محمد ص ١٣ وما بعدها .

وتسجيله كتابة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم فقال:
(لدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن اصحاب
النبى دونوا أثناء حياته نسخاشتى لأجزاء مختلفة من القرآن
وان هذه النسخ سجلت القرآن)

وكذلك كان شان القرآن أثناء حياة النبى . وكذلك
كان شأنه الى عام بعد وفاته وبقى مسطورا فى قلوب الذين
آمنوا به . مسجلة أجزاؤه المختلفة فى نسخ كانت تزداد
كل يوم عددا . وكان لزاما أن يتطابق هذان المصدران تمام
التطابق فقد كان القرآن منظورا اليه حتى فى حياة النبى
برهبة اليقين بانه كلام الله ذاته لذلك كان كل خلاف على
لغة يرجع فيه الى النبى نفسه كى يزيله .

فلما قبض النبى الذى كان يرجع اليه عند الخلاف
كانوا يرجعون الى النصوص المكتوبة ، والى ذاكرة أصحاب
النبى الأقربين وكتاب وحيه .

ويقول موير فى جمع أبى بكر الصديق بعد أن ذكره:
«وظفرت جهود زيد المتصلة خلال سنتين أو ثلاث بجمع هذه
المادة كلها وترتيبها على النحو الذى هى عليه اليوم وعلى
النحو الذى كان زيد يتلو عليه القرآن فى حضرة محمد فيما
يقولون فلما كملت النسخة الاولى عهد بها عمر الى صيانة

حفصة ابنته وزوج النبى وظل هذا الكتاب الذى جمعه زيد قائما طيلة خلافة عمر على أنه النص الصـــادق الصحيح » .

وفى جمع عثمان يقرر «موير» أن النقل كان من نسخة حفصة : «وجىء بالنسخة الاولى من حيازة حفصة وعرضت القراءات المختلفة من أنحاء الامبراطورية وروجعت كلها بأتم عنـــاية للمرة الاخيرة ـ وردت النسخة الاولى الى حيـــازة حفصة » .

« ووصل الينا مصحف عثمان . وقـد بلغت العناية بالمحافظة عليه أننا لا نكاد نجد ـ بل لا نجد أى خلاف بين النسخ التى لا عداد لها والمنتشرة فى أنحاء العالم الاسلامى . وان العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل ـ اثنى عشر قرنا « اربعة عشر قرنا » كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته ، والقراءات المختلفة قليلة الى حد يثير الدهشة وهذا الخلاف محصور اكثر أمره فى نطق الحروف المتحركة أو فى مواضع الوقف » .

« ان مصحف عثمان كان وما يزال صـــورة مضبوطة كما جمعه زيد بن ثابت» : ويتساءل «موير» : « هل كان

ما جمعه زيد صورة كاملة كما أوحى الى محمد؟ والاعتبارات الآتية تبعث اليقين بأنه كان مجموعة بلغت من حيث انها كاملة كل ما يمكن بلوغه يومئذ » .

وذكر (موير) الاعتبارات بانصاف يخالف ما عليه آثر جفرى وجلد تسيهر ـ واتباع هذا الصنف من المستغربين المسلمين فمن قوله ونتائجه الرائعة :

« محتويات القرآن ونظامه تنطق فى قوة بدقة جمعه فقد ضمت الاجزاء المختلفة بعضها الى بعض ببســاطة تامة لا تعمل ولا فن فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة والتنسيق وهو يشهد بايمان الجامع واخلاصه لما يجمع فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها الى بعض » .

« النتيجة التى نستطيع الاطمئنان الى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقا فحسب بل كان كما تدل الوقائع عليه كاملا . وأن جامعيه لم يتعمدوا اغفال اى شىء من الوحى . ونستطيع كذلك أن نؤكد استنادا الى أقوى الأدلة أن كل آية من القرآن دقيقة كما تلاها محمد» .

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/٢٧٢١

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

الفرع	العنوان	التليفون / المدينة
١ – فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠٩٢ القاهرة
٢ – فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٠١٣٢ القاهرة
٣ – فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٣ القاهرة
٤ – فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٣١١٨٧ القاهرة
٥ – فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧١٢ القاهرة
٦ – فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣ القاهرة
٧ – فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ – فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١ القاهرة
٩ – فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠ اسوان
١٠ – فرع الاسكندرية	١٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الاسكندرية
١١ – فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤ طنطا
١٢ – فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ – فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

الوكيل	العنوان	المدينة
١ – مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ – مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ – مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ – عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ آيار – دمشق	سوريا
٥ – الشركة العربية للتوزيع	ص ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ – قاسم الرجب	مكتبة المثنى – بغداد	العراق
٧ – رجا العيسى	وكالة التوزيع – عمان	الأردن
٨ – عبد العزيز العيسى	دار للتوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ – وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ – مكتبة الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص – ليبيا	بنغازي
١١ – محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ – الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ – وكالة الأهرام	شارع الرشيد	دمشق
١٤ – المكتبة الوطنية	المنامة – الخليج العربي	البحرين
١٥ – مكتبة الدوحة	ص.ب ٤٢ و ٩٤	الدوحة
١٦ – عبد الله حسن الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبي / عمان
١٧ – المكتبة الحديثة	ص ب ٢٧	مسقط
١٨ – أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ – مكتبة دار العلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ – علي ابراهيم بشير	ص ب ٨٢	أسمرة
٢١ – عبد الله قاسم الحرازي	ص ب ١٧٦٤	اديس ابابا
٢٢ – مكتبة مصر	ص ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ – عبد الله غانم محمد	ص ب ٨١٥	ممباسا
٢٤ – مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ – المكتب التجاري الشرقي	٤٠ لي كمعار ص ب ٢٢٠٥	سنغافورة
٢٦ – مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ – مكتبة النصر		وادي مدني
٢٨ – زكي جرجس طليوس	ص ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ – ابراهيم عبد القيوم	مكتبة العموم ص ب ١٨٠	بور سودان
٣٠ – عوض الله محمود دوره	مكتبة دوره ص ب ٢١	عطبره
٣١ – حسن عبد الله	المكتبة الوطنية ص ب ٢٤٥	ودمدني
٣٢ – مصطفى صالح	ص ب ١٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٥ قرش سوري – لبنان ٥٠ قرش لبناني – الأردن ٥٠ فلس – العراق ٥٠ فلس – الكويت ٧٠ فلس – السودان ٥٠ مليم – ليبيا ٥٠ مليم – قطر ٧٥ درهم – البحرين ٧٥ فلس – عمان ١٠٠ سنت – أديس أبابا ٥٠ سنت – أسمرة ٥٠ سنت – الجزائر ٨٠ سنتيم



الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم

- دكتوراه فى الحديث والتفسير سنة ١٩٦٣ من جامعة الأزهر .
- عين مدرسا بكلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر سنة ١٩٦٤ .
- عمل أستاذا للحديث والتفسير فى جامعتى ام درمان والخرطوم .

من مؤلفاته :

- الامام البخارى محدثا وفقيها .
- الغزالى حجة الإسلام .
- الرصافى شاعر العروبة .
- شرح أحاديث صحيح مسلم بن الحجاج .



المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجعل المدينة متعة تعمق الشعور بالحياة ، وسلاحا يساعد على الانتصار فى معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكرى محمد عياد